في رحاب القرآن

بقلم
الشيخ محمد حسن آل ياسين

في رحاب القرآن

الطبعـة الاولى ـ بغـداد

مطبعة المعارف ـ ١٣٨٨هـ

في رحاب القرآن الكريم

بقلم
الشيخ محمد حسن آل ياسين

إِنَّ هَذَا القرآن يَهدي للتي هِيَ أقوم وَيُبَشِّرُ
المؤمنينَ الذين يَعملونَ الصالحات أنَّ لهم أجرًا كبيرًا

تقديم

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله على ما أولى وأنعم ، وله الشكر على ما أفاء وألهم ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد خاتم النبيين ، وعلى آله الطيبين الطاهرين .

وبعـد :

فهذه خلاصة محاضرات كنت قد وفّقْت لالقائها في ندوة شباب الجوادين في الكاظمية ؛ وفي الجمعية المؤسسة لجامعة الكوفة ببغداد ، خلال شهر رمضان المبارك لسنة ١٣٨٧هـ ، دارت بمجموعها حول القرآن الكريم : اعجازاً وعلوماً وتفسيراً ومنهجاً ، باعتباره دستور الاسلام الخالد ، ومعجزته الكبرى ، وكتاب الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، تنزيل من حكيم حميد .

وكان الطابع الرئيس لهذه المحاضرات أن لا تنغلق على نفسها بالبحوث العلمية الصرفة التي تتداولها الخاصة من علماء الشريعة ومتعلميها ، وبالمصطلحات التي لا يفهمها الا المعنيون بهذه البحوث . بل حاولت – جهد الطاقة – تبسيط الافكار وتوضيح العبارة والابتعاد عن الغموض والتعقيد ، لينتفع بها أكبر عدد ممكن من الشباب المتطلع نحوفهم أُسس عقيدته وأركان دينه ، فجاءت بمجموعها – كما يراها القارىء الكريم – أقربَ ما تكون الى الوضوح في الفكرة ، والسهولة في الاداء ، اليُسر في العَرْض . والله تعالى

المسؤول أن يجعلها مصدر هدى ورشاد ، ودليل خير وسداد ، ووسيلة ثواب وأجر .

واذا كان شكر المخلوق من شكر الخالق ، فلابد لي من أداء واجب الشكر نحو اولئك الاخوان الأعزاء الذين كانوا وراء هذه المحاضرات ، سماعاً متحمّساً يوم القائها ، وانتظاراً ملحاً عند كتابتها ، واصراراً مستمراً على نشرها في كتاب . فلهم جميعاً شكري الفائق وامتناني الكبير .

قل هذه سبيلي أدعو الى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني ، وسبحان الله وما أنا من المشركين .

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

الكاظمية : **محمد حسن آل ياسين**

القرآن ورمضان

الحديث عن القرآن الكريم ـ بكل ما تعطيه كلمة القرآن من أبعاد ـ ألذُ حديث تهفو الأسماع اليه في رمضان ويحلو به السمر في لياليه الزاهية الوضاءة ، ذلك لأن وشائج القربى بين هذا الشهر الفضيل وكتاب الله المجيد متعددة الجوانب والأطراف ، ولأن حلقات الاتصال بينهما محكمة الشدّ والارتباط . واذا كان اختيار رمضان ظرفاً زمانياً لنزول القرآن من أبرز تلك الوشائج والحلقات ، فان الصوم بما يهذّب النفس ويصقل الروح ويكبح جماح الشهوة ويطهر القلب من أدران الحياة المادية وأوضارها ، مما يقرّب الانسان أكثر فأكثر الى روح القرآن ، ويشدُّه اليه شداً وثيقاً يصعب الانفلات منه باشارة عابرة من نزوة ، أو همسة عجلى من همسات النفس الأمّارة بالسوء .

واذا كان لكل رمضانٍ من كل عام مثلُ هذه القرابة الصميمة والالتحام الكامل ،فان لرمضاننا الذى نعيشه اليوم زيادةً في العلاقة لن تتكرر الا مرة واحدة في كل مائة عام ، ذلك اننا نعيش هذه الأيام ذكرى مرور أربعة عشر قرناً بالتمام على نزول القرآن ، تلك الذكرى التي ترجع بأفكارنا الى أغوار التاريخ البعيد ، حيث نتصور النبي صلى الله عليه وآله وسلم على صورته الرائعة المشرقة ، منقطعاً عن الناس في غار حراء ، متأملاً في ملكوت السماوات والارض ، يلتقط الاشارة الاولى للرسالة الخالدة ،

ويتمتم بتلك الكلمات المباركة التي كانت وما زالت أساس الحضارة الانسانية وتقدمها الفكري الكبير ، بما أسفر عنه حتى اليوم من عجائب وبما سيسفر عنه في المستقبل من عجائب اخرى ، انها كلمات القراءة والعلم التي خاطب الله تعالى بها نبيه الأكرم اذ يقول له : (اِقرأ باسم ربك الذي خلق • خلق الانسان من علق • اِقرأ وربك الأكرم • الذي علَّم بالقلم • علَّم الانسان ما لم يعلم) •

* * *

وتأكيداً لوشائج القربى القريبة بين القرآن ورمضان ، خص الله تعالى هذا الشهر المبارك بالذكر المعطر الكريم في كتابه المجيد ، فأنزل فيه آيات مباركات حفلت بتمجيد رمضان وتكريمه ؛ واشتملت على بيان ما فُرِض فيه من سنن وأحكام تهدف الى تهذيب النفس وصقل الروح وتعميق التقوى في الانسان ، ولما كنّا بصدد العيش « في رحاب القرآن » خلال هذا الشهر المعظم ، كان لابد لنا أن نجعل المرحلة الاولى من هذا المطاف متجهةً نحو استعراض تلك الآيات الشريفة ، استعراضاً قائماً على فهم المعنى والاحاطة بالهدف والمرمى ، لكي ندرك ـ بوعي وعمق ـ قدسية هذا الشهر ، ومدى الاهتمام الالهي به ، ومقدار الارتباط بينه وبين كتاب الله الخالد •

قال عزَّ من قائل :

(يا أيها الذين آمنوا كُتِبَ عليكم الصيامُ كما كُتِبَ على الذين من قبلكم لعلكم تتقون • أياماً معدوداتٍ ، فمن كان منكم مريضاً أو على سفرٍ فعدَّةٌ من أيام أُخر ، وعلى الذين يطيقونه فديةٌ طعام مسكين ، فمن تطوّع خيراً فهو خير له ، وأن تصوموا خير لكم اِن كنتم تعلمون • شهر رمضان الذي أُنْزِل فيه القرآن هدىً للناس وبيناتٍ من الهدى والفرقان ، فمن شَهِد منكم الشهر فليصُمْهُ ، ومَنْ كان مريضاً أو على سفر فعدَّة من أيام أُخر ، يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر ،

ولتكملوا العدة ، ولتكبّروا الله على ما هداكم ولعلكم تشكرون) .

(أُحِلَّ لكم ليلةَ الصيام الرَّفَثُ الى نسائكم هُنَّ لباس لكم وأنتم لباس لهنَّ ، علم الله أنكم كُنتم تختانون أنفسكم ، فتاب عليكم وعفا عنكم ، فالآن باشروهنَّ وابتغوا ما كتب الله لكم ، وكلوا واشربوا حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر ثم أتموا الصيامَ الى الليل ، ولا تباشروهنَّ وأنتم عاكفون في المساجد ، تلك حدود الله فلا تقربوها ، كذلك يبين الله آياته للناس لعلهم يتقون) .[1]

والمستفاد من هذه النصوص القرآنية المباركة أنَّ للصوم في التشريع الاسلامي أهميةً خاصة عبَّرتْ عنها الآيات الكريمة والأحاديث الشريفة بأساليب شتى ، تختلف في تعبيرها وتتحد في هدفها ، ولعل أبلغ ما بلغته الأحاديث في بيان أهميــة الصوم ما جـاء في الحديث النبوي الشريف : « من صام رمضان إيماناً واحتساباً غُفِرَ له ما تقدَّم من ذنبه »[2] .

والحديث النبوي الآخر : « الصوم جُنَّةٌ من آفات الدنيا وحجاب من عذاب الآخرة ، فاذا صمت فانو بصومك كَفَّ النفس عن الشهوات وقطع الهمة عن خطرات الشياطين »[3] .

والآيات المباركة السالفة الذكر هي كل ما جاء في القرآن المجيد عن شهر رمضان وصومه وأحكامه ، وهي مقسَّمة بأفكارها ومطالبها الى ثلاثة أقسام متسلسلة : عُنِيَ القسم الأول منها بأصل تشريع الصوم . واتجه القسم الثاني الى تعيين الايام التي يجب فيها الصوم وبيان موارد سقوطه وما يترتَّب على ذلك من قضاء وفداء . وتكفَّل القسم الثالث ببيان أحكامه الخاصة ، أي ما يحرم فيه على الصائم وما يحل من تصرفات وأعمال .

* * *

لقد تضمن القسم الاول من تلك الآيات بيان فرض الصــوم عــلى

المسلمين ، ثم الاشارة الى أن هذا الالزام ـ بصرف النظر عن تفاصيله ـ لم يكن تشريعا جديدا يحمله الدين الجديد ، بل انه قد كُتِبَ ـ أي فُرِضَ ـ على أتباع هذا الدين كما كُتِبَ على الذين من قبلهم •

وما فُرِضَ الصومُ على هذه الامم وفي كل تلك الشرائع الا لما يعلمه الله تعالى فيه من آثار كبرى على الجسد والروح ، وقد ذكر الأطباء من حيث فوائد الصوم الصحية أنه يُستعمل كعلاج مهم في كثير من الحالات المرضية ، وضربوا مثلا لذلك : بعض اضطرابات الامعاء ، وزيادة الوزن الناشيء من كثرة الغذاء وقلة الحركة ، وزيادة ضغط الدم ، وبعض حالات البول السكري ، وأمراض القلب المصحوبة بتورم ، والتهاب المفاصل المزمن ، وبعض أنواع الامراض الجلدية ، وبعض الاورام والبؤر الصديدية(٤) •

ومن ناحية آثاره الكبرى على النفس والروح ، فان له الدور الكبير أو الأكبر في تربية الوازع النفسي ، والسيطرة على الشهوات والرغبات والميول ، وكبح جماح النفس ، وتقوية الارادة • كما انه يلعب دورا كبيرا أيضا في ترويض الانسان وتعويده على النظام والقناعة والصبر والحس المرهف •

ولما كان الهدف الرئيس من كل العبادات الاسلامية هو التقوى أي خشية الله تعالى ، فان الصوم يأتي في الطليعة من تلك الوسائل التي تُعِدُّ الانسان لبلوغ هذه الغاية وتحقيق ذلك الهدف •

والذي نفهمه من قوله تعالى : (لعلكم تتقون) ان الصوم ليس بحد ذاته تقوى وخشية بكل ما تعبِّر عنه كلمتا التقوى والخشية ، وانما هو وسيلة لتحصيل ذلك اذا أحسن المكلَّف القيام بواجبات هذه الوسيلة ، فيكون الصوم هنا كبير الشبه بالبذر الذي يطرح في الارض ، فاذا هيأ له

لزارع ظروفه المواتية وشروطه المطلوبة جاءت النتائج مبشرة بالخير ومحققة للآمال ، وان أهمل الالتفات الى ذلك لم يحصد الا الفشل والخيبة .

وكذلك الصوم ، ان هيأ الصائم له ظروفه الخاصة ومناخه الملائم حقق هدفه من التقوى كما أرادها الله عز وجل ، وان لم يهيء له ذلك لم يكن له من صومه الا الجوع والعطش ، كما جاء في الحديث الشريف .

ولما كان الناس في التقيُّد بشروط الصوم الحقيقية غير متساوين ، كان ورود « لَعَلَّ » في هذا المقام بمثابة التنبيه الهادىء للمسلم على ضرورة محاولته استكمال شروط الصوم ولوازمه ليحصل على نتائجه الرائعة في الدنيا والآخرة .

★ ★ ★

وقد تضمن القسم الثاني من مباحث الآيات الرمضانية : الاشارة الى أن الصوم لم يُفْرَض على الناس طيلة شهور السنة ولا أكثر أيامها ، وانما هو (أياماً معدودات) تعبيراً عن اليسر والسهولة وسرعة الانقضاء ، وان هذه الأيام شهر كامل هو شهر رمضان(٥) ، وانه انما اختير هذا الشهر دون غيره من الشهور ، لانه الشهر الذي أُنْزِل فيه القرآن ليكون هادياً للناس ودليلا على الهدى وفارقاً بين الحق والباطل .

ثم تضمن هذا القسم بعد ذلك عددا من الشؤون المرتبطة بالصوم وشهره ، ومن أبرز تلك الشؤون :

١ ـ اِعفاء المريض من وجوب الصوم الفوري ، فاذا مرض المكلَّف قبل دخول شهر رمضان واستمر المرض به الى حين دخوله ، أو مرض في أثناء الشهر ، وجب عليه الافطار ، وعليه القضاء بعد ذلك (فعدة من أيام اخر) .

« واختُلِف في العدَّة من الأيام الاخر ، فقال الحسن وجماعة :

هي على التضييق ، اذا برىء المريض أو قدم المسافر ، وقال أبو حنيفة : موسع فيها • وعندنا : موقت فيما بين رمضانين ، وتجوز متتابعة ومتفرقة ، والتتابع أفضل ، فان فَرَّط حتى لحقه رمضان آخر لزمه الفدية والقضاء »[٦] •

ولا فرق في المرض المانع من الصوم بين حدوثه أو شدته أو طول مدته ، فان هذه الحالات بأجمعها مشمولة لاطلاق الاذن الوارد في الآية ، وفي الحديث عن أبي بصير قال : سألت أبا عبدالله (ع) عن حَدِّ المرض الذي على صاحبه فيه الافطار قال : هو مؤتمن عليه مفوَّض اليه ، فان وجد ضعفاً فليفطر وان وجد قوة فليصم[٧] ، وفي الحديث الآخر المروي عن بكير بن زرارة قال : سألت أبا عبدالله (ع) : ما حَدُّ المرض الذي يفطر به الرجل ويدع الصلاة من قيام ؟ قال : بل الانسان على نفسه بصيرة ، هو أعلم بما يطيقه » •[٨]

٢ ـ اعفاء المسافر من الصوم ، وايجابه على الحاضر عند أهله ، وهو المعبَّر عنه في الآية الشريفة ﴿ فمن شهد ﴾ أي من كان حاضرا في بلده ، ويشترط في السفر الموجب للافطار عند الامامية أن يكون مباحاً وطاعة « وكانت المسافة ثمانية فراسخ ، أربعة وعشرين ميلا • وعند الشافعي ستة عشر فرسخاً • وعند أبي حنيفة أربعة وعشرين فرسخا »[٩] •

والآية الشريفة دالَّة على وجوب الافطار على المسافر والمريض ، لأنه تعالى أوجب عليهما القضاء • وبوجوب الافطار في السفر قال عمر بن الخطاب وعبدالله بن عمر وعبدالله بن عباس وعبدالرحمن بن عوف وأبو هريرة وعروة بن الزبير ، ورُوِيَ عن عبدالله بن عباس قوله «الافطار عزيمة» ، ورُوِيَ ان عبدالله بن عمر سئل عن الصوم في السفر فقال : « أرأيت لو تصدقت على رجل بصدقة فردها عليك ألا تغضب ! ؟ فانها صدقة من الله

تصدّق بها عليكم » ، ورُوِيَ ان عمر بن الخطاب أمر رجلا صام في السفر أن يعيد صومه ، ورُوِيَ عن عبدالرحمن بن عوف عن النبي ـ ص ـ انه قال : « الصائم في السفر كالمفطر في الحضر » ويقول الحافظ ابن كثير الدمشقي : « ثبتت السنة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم انه خرج في شهر رمضان لغزوة الفتح ، فسار حتى بلغ الكديد ، ثم أفطر وأمر الناس بالفطر . أخرجه صاحبا الصحيح » ، وروى جابر الانصاري عن النبي ـ ص ـ انه قال : « ليس من البر الصيام في السفر » ، ورُوِيَ عن أبي عبدالله ـ ع ـ انه قال : « الصائم في شهر رمضان في السفر كالمفطر في الحضر » ، كما روى محمد بن مسلم عن أبي عبدالله ـ ع ـ ضمن حديث : انه « نزلت هذه الآية بكراع الغميم عند صلاة الهجير ، فدعا رسول الله باناء فيه ماء فشرب وأمر الناس أن يفطروا ، فقال قوم : قد توجّه النهار ولو تممنا يومنا هذا ، فسماهم رسول الله العصاة » .(١٠)

٣ ـ الزام العاجز عن صوم رمضان وقضائه خلال الأشهر التالية له الى رمضان آخر : أن يدفع الفدية التي هي عبارة عن طعام مسكين ، ان كان يستطيع دفع الفدية ويطيقه ، كما فسّر الآيةَ بذلك بعضُ المفسرين .(١١)

وذهب أكثر المفسرين الى معنى آخر لهذه الفقرة من الآية خلاصته : ان الله خَيَّرَ « المطيقين الصوم من الناس كلهم بين أن يصوموا ولا يكفّروا ، وبين أن يفطروا ويكفّروا عن كل يوم باطعام مسكين ، لانهم كانوا لم يتعوّدوا الصوم ، ثم نُسِخَ ذلك بقوله : (فمن شهد منكم الشهر فليصمه) .(١٢)

وأما المَعْنِيُّ بجملة (الذين يطيقونه) ففيه ثلاثة أقوال :

« أولها : انه سائر الناس ، من شاء صام ومن شاء أفطر وافتدى لكل يوم اطعام

مسكين ، حتى نُسِخَ ذلك ، في قول ابن عباس والشعبي .

الثاني : قال الحسن وعطاء : انه في الحامل والمرضع والشيخ الكبير ، فَنُسِخ من الآية الحامل والمرضع ، وبقي الشيخ الكبير . وقال السدي : انه فيمن كان يطيقه اذا صار الى حال العجز عنه » .(١٣)

الثالث : معناه : وعلى الذين كانوا يطيقونه ثم صاروا بحيث لا يطيقونه ، ولا نسخ فيه ، عن السدي . وقد رواه بعض أصحابنا عن أبي عبدالله (ع) » .(١٤)

٤ ـ نزول القرآن في هذا الشهر .

وليس النزول الذي تذكره الآية نزولاً مادياً من مكان عالٍ الى مكان دونه كما يوحي به الفهم الساذج ، وانما هونزول معنوي مجرد عن المعاني الجسمية ، لأن الله تعالى ليس بجسم ليحدّه مكان معين وليكون نزول القرآن من ذلك المكان بالذات ، وانما يعتبر علوُ الله عز وجل على كل ما خلق علواً معنويا باعتباره خالق كل شيء وربَّ كل شيء والمتفضل على كل شيء بافاضة الحياة والقدرة والطاقة في كل آن .

و « اختُلِف في قوله : (أُنْزِل فيه القرآن) ، فقيل : ان الله أنزل جميع القرآن في ليلة القدر الى السماء الدنيا ، ثم أُنزل على النبي بعد ذلك نجوما في طول عشرين سنة ، عن ابن عباس وسعيد بن جبير والحسن وقتادة وهو المروي عن أبي عبدالله (ع) .

وقيل : ان الله تعالى ابتدأ انزاله في ليلة القدر من شهر رمضان ، عن ابن اسحاق .

وقيل : انه كان ينزل الى السماء الدنيا في ليلة القدر ما يُحْتاج اليه في تلك السنة جملة واحدة ، ثم ينزل الى مواقع النجوم ارسالا في الشهور والايام ، عن السدي .

وروى الثعلبي باسناده عن أبي ذر الغفاري عن النبي (ص) انه قال : أُنزلت صحف ابراهيم لثلاث مضين من شهر رمضان ، وفي رواية الواحدي : في أول ليلة منه ، وأُنزلت توراة موسى لستٍ مضين من شهر رمضان ، وأنزل انجيل عيسى لثلاث عشرة ليلة خلت من رمضان ، وأنزل زبور داود لثمان عشرة ليلة مضت من رمضان ، وأُنزل الفرقان على محمد لأربع وعشرين من شهر رمضان ، وهذا بعينه رواه العياشي عن أبي عبدالله عن آبائه عن النبي (ص) .

وقيل المراد بقوله : ـ أُنزل فيه القرآن ـ انه أُنزل في فرضه وايجاب صومه على الخلق القرآن ، فيكون « فيه » بمعنى « في فرضه » ، كما يقول القائل : أنزل الله في الزكاة كذا ، يريد في فرضها ».(١٥)

★ ★ ★

أما الفصل الثالث فقد تضمن بيان ما يحرم على الصائم وما يحل له ، وكان أبرز تلك الاحكام الخاصة تحريم الامور الثلاثة الآتية :

١ ـ الأكل .

٢ ـ الشرب .

وقد دلّ على ذلك اباحتهما خلال الليل : (كلوا واشربوا حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر ، ثم أتموا الصيام الى الليل) ، حيث يتضح منه تحريم الأكل والشرب خلال فترة الصوم المبتدئة بالفجر والمنتهية بدخول الليل .

وروى المفسرون والمؤرخون ان الأكل كان محرماً في شهر رمضان بالليل بعد النوم ، وذكروا ان رجلاً من الأنصار يقال له قيس بن صرمة صلّى العشاء ثم نام فلم يأكل ولم يشرب حتى أصبح ، فأصبح مجهوداً . وأخرج البخاري عن البراء قال : كان أصحاب النبي (ص) اذا كان الرجل

صائما فحضر الافطار فنام قبل أن يفطر لم يأكل ليلته ولا يومه حتى يمسي ، وان قيس بن صرمة الانصاري كان صائما فلما حضر الافطار أتى امرأته فقال : هل عندكِ طعام ؟ فقالت : لا ولـكني أنطلق فأطلب لك ، وكـان يومه يعمل ، فغلبته عينه ، وجاءته امرأته فلما رأته قالت : خيبةً لك ، فلما انتصف النهـار غُشِيَ عليه ، فَذُكِر ذلك للنبي (ص) فنزلت هـذه الآية .(١٦)

٣ ـ الجماع ، وقد دلّ على حرمته قوله تعالى : (أُحِلّ لكم ليلةَ الصيام الرَّفَثُ الى نسائكم) ، ويقول بعض المفسرين : ان النكاح «كان حراماً بالليل والنهار في شهر رمضان ... وكان قومٌ من الشباب ينكحون بالليل سراً في شهر رمضان»(١٧)، ويقول بعض آخر : انه كان حراماً في شهر رمضان بالليل بعد النوم .(١٨)

ولما كانت مدة تحريم المحرمات السالفة الذكر منتهية بالليل ، فقد بحث الفقهاء والمفسرون تحديد اللحظات الاولى من الليل وعلامات دخوله، وتعددت أقوالهم في ذلك والحقيقة ان « الليل هو السواد والظلام المعاقب للنهار ، ولذا يقولون : ليل أليل أي شديد الظلام أو السواد . والغايـة للصيام أن يغشى الليل الصائم ... بأن تذهب الحمرة المشرقية ويصـل سواد الليل المعاقب لها الى الصائم ، أي الى سمت رأسه ، فان المشرق في جهة السماء مطلٌ على المغرب ، فيكتسب من نور الشمس ما تظهر به الحمرة ويبقى به النهار ، الى أن تحتجب الشمس شيئا فشيئا فيظهر الليل ويسري على وتيرة احتجابها ، حتى يصل الى الرأس ، فلا يذهب النهار عن الصائم الا بذهاب الحمرة عن سمت رأسه» وعلى ذلك روايات كثيرة ، منها من طريق الامامية ما رواه أبان وعمار وابن شريح وابن اشيم وابن أبي عمير ، ولا ينافيها ما عُبِّرَ فيه بغيبوبة الشمس وغروبها ، لما أشرنا اليه . وهذا هو الذي يُفْقَه مما أخرجه البخارى ومسلم والترمذي وابو

داوود وابن جرير ، وعن ابن أبي شيبة والنسائي عن عمر قال : قـال رسول الله (ص) : اذا أقبل الليل من هاهنا وأدبر النهـار من هاهنـا وغربت الشمس فقد أفطر الصائم ، وأخرج البخاري وأبو داوود وابن جرير عن عبدالله بن أبي أوفى بعدة أسانيد في حديث قال : قال رسول الله (ص) : اذا أقبل الليل من هاهنا وضرب بيده نحو المشرق أفطر الصائم ، وفي الدر المنثور أخرج أحمد وعبيد بن حميد وابن أبي حاتم والطبراني في حديثٍ قولَ رسول الله (ص) : وأتموا الصيام الى الليل فاذا كان الليل فافطروا . وغير خفي انه في حالة وجود الحمرة المشرقية لم يقبل الليل من ناحية المشرق ولم يكن على الصائم ليل .(١٩)

* * *

وهكذا يتجلى لنا من كل ما سلف مقدار اهتمام القرآن برمضـان ، ومتانة الرباط الوثيق الذى يشدُّ كتاب السماء الخالد بشهر التقوى الفضيل. والله المسؤول أن يأخذ بأيدينا جميعا في هذا الشهر الشريف الى العلم بالقرآن والعمل به ، لنكون ـ كما أرادنا الله تعالى ـ خير امة أُخرجت للناس ، نأمر بالمعروف ، وننهى عن المنكر ، ونؤمن بالله رب العالمين .

(ربَّنا اننا سمعنا منادياً ينادي للايمان أن آمِنوا بربكم فآمنّا . ربَّنا فاغفر لنا ذنوبنا وكفِّرْ عنّا سيآتنا وتوفَّنا مع الأبرار) .

(١) سورة البقرة ١٨١ ـ ١٨٥ ٠
(٢) مجمع البيان : ٢/٢٧٥ ٠
(٣) جامع السعادات : ٣/٣٧٧ ٠
(٤) الاسلام والطب الحديث : ٣٢ ـ ٣٦ ٠
(٥) مجمع البيان : ٢/٢٧٣ ٠
(٦) نفس المصدر : ٢/٢٧٧ ٠
(٧) المصدر السابق : ٢/٢٧٧ ٠
(٨) آيات الاحكام : ١١١ ٠
(٩) مجمع البيان : ٢/٢٧٧ ٠
(١٠) يراجع فى تفاصيل ذلك : التبيان : ٢/١١٧ ومجمع البيان ٢/٢٧٤ وتفسير ابن كثير : ١/٢١٧ وآلاء الرحمن : ١/١٥٨ ٠
(١١) تفسير ابن عباس : ٢٠ ومعاني القرآن ١/١١٢ والتبيان : ٢/١١٩ ٠
(١٢) مجمع البيان : ٢/٢٧٤ ٠
(١٣) التبيان : ٢/١١٩ ٠
(١٤) مجمع البيان : ٢/٢٧٤ ٠
(١٥) نفس المصدر : ٢/٢٧٦ ٠
(١٦) أسباب النزول ـ هامش تفسير ابن عباس ـ : ٣١ ـ ٣٢ ومجمع البيان : ٢/٢٨٠ وتفسير ابن كثير : ١/٢٢٠ ٠
(١٧) مجمع البيان : ٢/٢٨٠ ٠
(١٨) التبيان : ٢/١٣٣ والناسخ والمنسوخ ـ هامش تفسير ابن عباس ـ : ٣٢١ وتفسير ابن كثير : ١/٢٢٠ ٠
(١٩) آلاء الرحمن : ١/١٦٣ ويراجع تفسير ابن كثير : ١/٢٢٣ ٠

إعجاز القرآن

الحديث عن القرآن الكريم حديث متعدد الجوانب واسع الأبعاد بعيد الأغوار ، ومهما أطال المتحدّث في الكلام وأسهب في القول وأُوتي من المقدرة على الاسترسال فلن يبلغ بعض غوره أو يصل الى جزء صغير من مداه الشاسع غير المحدود ، وعلى الرغم من سعة مجالات القول وجوانب البحث فيه فسيبقى في الطليعة من كل ذلك كونه معجزةَ هذا الدين وشاهد صدق نبيّه الأمين . ولما كانت الشريعة الاسلامية شريعةَ الله الباقية الى يوم القيامة والدائمة ما دامت السماوات والارض ، كان لابدّ لدستورها ومصدر بقائها أن يظلّ باقياً معها خالداً خلودها ، لأن الشريعة الدائمة لا تستغني عن المعجزة الدائمة التي تشهد بصدق هذا الدين وكونه من الله تعالى رب العالمين .

وللقرآن عند الله تعالى أهمية خاصة وفضل كبير ،لن تدرك شأوه الكلمات ولن تبلغ حدّه التعابير ، وكيف لا يكون له مثل هذا الفضل والشأن وهو كلام الله العظيم ، ومعجزة نبيه الكريم ، ورمز خلود هذه الشريعة المباركة ، ومجمع الهدى والخير والرحمة للانسانية المعذبة الملفّعة بالظلام (انّ هذا القرآن يهدي لِلّتي هي أقْوَم) (هـذا بيانٌ للناس

وهدىً وموعظة للمتقين) (كتابٌ أنزلناه اليك لتخرج الناسَ من الظلمات الى النور) .

وقد ورد في الأثر عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قوله : « فضل كلام الله على سائر الكلام كفضل الله على خلقه »[١] .

كما روى الحارث الهمداني عن أمير المؤمنين ـ في حديث طويل ـ قوله عليه السلام : « كتاب الله فيه نبأ ما قبلكم وخبر ما بعدكم وحكم ما بينكم ـ الى أن يقول ـ : « هو الذى مَنْ قال به صدَق ، ومن حكم به عدل ، ومن عمل به أُجِر ، ومن دعا اليه هُدِي الى صراط مستقيم »[٢] .

وبالنظر الى هذا الشأن الكبير الذي حبا الله به كتابه المجيد بلغت قراءته حدّاً عظيما من الفضل ، وأصبحت سبيلا الى مراتب من الاجر ربما لا يبلغها المسلم من غير هذا الطريق ، وقد تواترت الروايات عن النبي (ص) والأئمة (ع) تحث الامة على تلاوة الكتاب وقراءته آناء الليل وأطراف النهار ، حتى جاء في الرواية عن الامام الصادق عليه السلام قوله : « ما يمنع التاجر منكم المشغول في سوقه اذا رجع الى منزله أن لا ينام حتى يقرأ سورة من القرآن فَيُكْتَبُ له مكان كل آية يقرأها عشر حسنات ويُمحى عنه عشر سيئات »[٣] .

والحديث النبوي الشريف يقول : « مَنْ قرأ حرفاً من كتاب الله تعالى فله حسنة ، والحسنة بعشر أمثالها »[٤] .

والشيء المستفاد من مجموع ما ورد في الحثّ على قراءة القرآن أن القراءة ليست غايةً بحدّ ذاتها ، وانما أُريد بها أن تكون طريقاً الى ادراك معاني القرآن ومراميه ، ولذلك ورد الحث المؤكد على التدبر في القرآن والتأمل في مقاصده وأهدافه ، قال تعالى : (أفلا يتدبّرون القرآن

أم على قلوبٍ أقفالها) ، وهذا بديهي في العقل ولو لم يرد بـه النص ، لأن القرآن هو الكتاب الذي أنزله الله هدىً للناس وبيناتٍ من الهدى والفرقان ، ولا يمكن السير على هداه والعمل ببيناته الاّ بعد فهمها والاحاطة بمقاصدها ، وفي الرواية عن الامام السجاد علي بن الحسين (ع) قوله : « آيـات القـرآن خزائن ، فكلمـا فتحت خزينـةً ينبغي لك أن تنظـر ما فيها » .(٥)

واذا كان في مقدمة فوائد التدبر في آيات القرآن تبيين النهج السوي وتصحيح العمل للمسلم فان له فائدة رئيسة اخرى لن يستغني عنهـا كل مقر بهذا الدين ، تلك هى فهم اعجاز القرآن وادراك انه المعجز الخـالد الذي لا يأتيه الباطل ولا يدنو اليه الشك .

* * *

ان معنى الاعجاز في اللغة : احداث العجز ، يقال أعجزتُ زيداً ، أي جعلتُه عاجزاً . وفي الاصطلاح : أن يأتي المدعي لمنصب الهي بمـا يخرق قوانين الطبيعة ويعجز عنه الناس ، كشاهد على صدق دعواه .

وقد يدعي واحدٌ من الناس منصباً الـهياً ويأتي بما يعجز عنه غيره من البشر ، ثم يكون ذلك المعجز دليلاً على كذب ادعائه ، نحو ما يُـرْوى عن مسيلمة الكذاب من أنه تفل في بئر قليلة الماء ليكثر ماؤها فغار جميع ما فيها من الماء ، وأنه أمـرّ كفه على رؤوس صبيان قومه فأصاب القرع كلّ صبي مسح رأسه .

وليس من الاعجاز المصطلح عليه : ما يظهره الساحر أو العالم ببعض العلوم النظرية الدقيقة ، وان أتى بشىء يعجز عنه غيره ، ذلك لان العلوم النظرية ذات قواعد معلومة عند أهلها ، ولابد لتلك القواعد أن توصل الى نتائجها وان احتاجت الى دقة ومهارة فى التطبيق .

وحيث فرغ علم الكلام من تقرير القاعدة القائلة بوجوب تكليف عامة البشر على الله تعالى بحكم العقل ومن باب اللطف ، كان لابد من القول بضرورة وجود سفراء امناء بين الله سبحانه وبين الناس لابلاغ التكاليف ، ولما كانت هذه السفارة الالـهية من المناصب العظيمة التي يكثر المدعون لها فيشتبه الصدق بالكذب ، لزم مدعي هذه السفارة أن يأتي بشاهد على صدقه في ادعائه ، على أن لا يكون هذا الشاهد من الافعال العادية التي يمكن أن يأتي المدعي الكاذب بما يشابهها ، وبذلك ينحصر الأمر في الاتيان بما يخرق القوانين الطبيعية .

وانما صحّ القول بكون الاعجاز دليلاً على صدق المدَّعي وصحة الادعاء ، لأن المعجز قائم على خرق قوانين الطبيعة ونواميسها المعروفة ، ومثل هذا الخرق لا يمكن أن يقع من أحدٍ الا باقدارٍ من الله تعالى ، وبذلك يكون المعجز الذى يظهر على يد مدعي النبوة دليلا على صدقه بما يكشفه من رضا الله عز وجل بنبوته حيث أقدره على الاتيان به ، وقد أشار جلّ وعلا الى هذا المعنى بقوله في كتابه المجيد : (ولو تقوّل علينا بعضَ الأقاويل ، لأخذنا منه باليمين ، ثم لقطعنا منه الوتين) .

* * *

لقد كان للرسول الاعظم صلى الله عليه وآله وسلم نوعان من المعجزة :

الاول ـ القرآن المجيد .

الثاني ـ المعجزات الاخرى التي شاهدها المسلمون الأوّلون ـ وهم عدد كبير جداً ـ ، ثم تواتر النقل عنهم بشأنها ، وأُلِّفَتْ فيها الكتب ، واحتشدت بروايتها أسفار الحديث ، وما تزال تُرْوى حتى اليوم وبعد اليوم بهذا الشكل من تواتر النقل ، على تعاقب الاجيال وكرّ السنين .

وقد حاول بعض جهلة المؤلفين أن يشككوا في تلك المعجزات ، بل ادعى بعضهم أن في آيات القرآن ما يدل على نفي كل معجزة للنبي صلى الله عليه وآله وسلم غير القرآن ؛ وان القرآن هو المعجزة الوحيدة التي جاء بها رسول الله (ص) تصديقاً لدعواه ، واستدلوا على ذلك بقوله تعالى : (وما مَنَعَنا أن نرسل بالآيات الا أن كذَّب بها الأولون) حيث زعموا ان هذه الآية ظاهرة في ان النبي (ص) لم يأتِ بآيةٍ غير القرآن ، وان السبب في عدم الارسال تكذيب الاولين من الامم بالآيات التي أُرسلت اليهم .

وقد أفاض استاذنا آية الله الامام الخوئي في دحض هذه الشبهة وتزييفها فقال ما خلاصته :[٦]

ان المراد بالآيات التي نفتها الآية الكريمة والتي كذَّب بها الأولون من الامم هي الآيات المقترَحَة من قبل الامم على أنبيائها ، فالآية الكريمة تدلنا على أن النبي (ص) لم يجب المشركين الى ما اقترحوه عليه من الآيات ، ولا تنفي عنه صدور المعجزة مطلقاً ، ولو كان تكذيب المكذبين يصلح أن يكون مانعاً عن الارسال بالآيات لكان مانعا عن الارسال بالقرآن أيضاً ، اذ لا وجه لتخصيص المنع بالآيات الاخرى ، خصوصا وان القرآن أعظم المعجزات التي جاء بها الانبياء ، وهذا يدلنا على أن الآيات الممنوعة قسم خاص ، وليست مطلق الآيات .

على أن تكذيب الامم السابقة لو صلح أن يكون مانعاً عن تأثير الحكمة الالهية في الارسال بالآيات لصلح أن يكون مانعاً عن ارسال الرسول ، وهذا باطل بالضرورة وخلاف للمفروض أيضا ، فتعيَّن أن يكون المقتضي للارسال بالآيات هو اقتراح المقترحين . وواضح أن المقترحين انما يقترحون اموراً زائدة على الأيات التي تتم بها الحجة ، فان هذا المقدار من الآيات

لا يجب على الله أن يرسل به ابتداءا ، ولا يجب عليه أن يجيب اليه اذا اقترحه المقترحون ، وان كان لا يستحيل عليه ذلك اذا اقتضت المصلحة .

وعلى هذا فاقتراح المقترحين انما يكون بعد اتمام الحجة عليهم بما يلزم من الآيات وتكذيبهم اياها ، وانما كان تكذيب الامم السابقة مانعا عن الارسال بالآيات المقترحة لأن تكذيب الآيات المقترحة يوجب نزول العذاب على المكذِّبين ، وقد ضمن الله رفع العذاب الدنيوي عن هذه الامة اكراماً لنبيه (ص) ، فقد قال تعالى : (وما كان الله ليعذِّبَهُمْ وأنت فيهم) .

أما أنَّ تكذيب الآيات المقترحة يوجب نزول العذاب على المكذبين فلأن الآية الالٰهية اذا كانت مبتدأَةً كانت متمحضة في اثبات نبوة النبي ولا يترتب على تكذيبها الا ما يترتب طبيعياً على تكذيب النبى من العقاب الاخروي . أما الآيات المقتَرَحَة فهي كاشفة عن لجاج المقترح وعناده ، اذ لو كان طالباً للحق لصدَّق بالآية الاولى ، لانها كافية في اثبات المطلوب ، ولان معنى اقتراحه هذا أنه قد التزم على نفسه بتصديق النبي اذا أجابه الى هذا الاقتراح ، فاذا كذَّب بالآية المقترحة بعد صدورها كان مستهزئاً بالنبي وبالحق الذى دعا اليه .

وخلاصة القول : انه لا دلالة لشيء من آيات القرآن على نفي المعجزات الاخرى غير القرآن ؛ على الرغم من كونه المعجزة الخالدة الكبرى للنبي صلى الله عليه وآله وسلم ؛ وان تعدَّد ظهور المعجز على يديه .

* * *

وليسَ التمييز الصائب بين المعجز الحقيقي وغيره أمراً سهلاً ميسوراً لكل أحد كما يبدو لأول وهلة ، بل لن يقدر عليه غير علماء الصنعة التي يكون ذلك المعجز على شاكلتها لأنهم أعرف بها وأدرى بخصوصياتها ، وهم الذين يستطيعون التفريق بين ما يعجز البشر عن الاتيان بمثله وبين

ما يمكنهم ، ولذلك كان العلماء أسرع تصديقا بالمعجز ، و (انما يخشى الله من عباده العلماءُ) ، لأن غير العالم لا يقوى على التمييز بين الصدق والكذب ، فيبقى باب الشك مفتوحا لديه ما دام جاهلا بمبادىء ذلك العلم وما دام يحتمل أن المدعيقد اعتمد على مبادىء علمية ربما تكون معلومة عند لخاصة من رجال تلك الصنعة فيتباطىء عن الاسراع في التصديق ، ولهذا لسبب اقتضت الحكمة الالهية أن تكون معجزة كلِّ نبيٍ مشابهةً للعلم الشائع في زمانه ؛ والذي يكثر الممارسون له والعالِمون به من أهل عصره ، ليكون ذلك سبباً في سرعة التصديق واحكام الحجة ، ومن هنا نجد أن السحرة في عصر موسى كانوا أسرع من غيرهم الى الاقرار ببرهان نبيهم ، لأنهم رأوا أنَّ ما جاء به رسولهم خارجٌ عن الحدود العلمية المقررة للسحر .

ولما كان العرب في عصر نزول القرآن قد بلغوا الغاية في الكلام البليغ والاهتمام بشؤون الادب وفنون الفصاحة كان لابد بمقتضى الحكمة الآلهية أن تتمشى معجزة نبي الاسلام مع هذه الظاهرة البارزة ، فجاء رسول الله صلى الله عليه وآله بمعجزة القرآن وبلاغة البيان ، ليعلم كلُّ عربي ان هذا الكلام الهيٌّ محض خارج ببلاغته المتناهية عن طاقة البشر وامكاناتهم الفكرية والادبية .

وكما أسلفنا من قبل فان للنبي صلى الله عليه وآله وسلم معجزات اخرى غير القرآن ـ وهي أكثر من أن تستوعب بهذه العجالة ـ ، ولكن القرآن أعظم هذه المعجزات شأنا وأقومها بالحجة ، لان العربي الجاهل بعلوم الطبيعة والسنن الكونية قد يشك في هذه المعجزات وينسبها الى أسباب علمية يجهلها وفي طليعتها السحر الذى كان من أقرب الاسباب الى ذهنه الساذج ، ولكنه بما كان يتحلى به من معرفةٍ بفنون البلاغة وأسرار الكلام الفصيح لا يشك في اعجاز القرآن وعدم قدرة البشر على الاتيان بمثله .

على أن تلك المعجزات الاخرى موقّتة البقاء ، اذ سرعان ما تصبح خبرا تتناقله الرواة . وحديثا تتداوله الافواه ، فينفتح فيها باب الشك وتغدو عرضة للتصديق والتكذيب . أما القرآن فهو باقٍ بقاء السماوات والارض ، واعجازه ماثل أمام كل جيل وواضح لكل ذي عينين على مر القرون وتقادم الايام .

وقد علم كلٌ من بلغته الدعوة الاسلامية ان محمداً صلى الله عليه وآله قد دعا جميع الناس وسائر الامم الى الاسلام ، وأقام الحجة عليهم بالقرآن، وتحداهم باعجازه ، وطلب منهم أن يأتوا بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا ، ثم تنزّل فطلب منهم أن يأتوا بعشر سور مثله مفتريات ، ثم تحدّاهم بالاتيان بسورة واحدة ، ولو كان العرب ـ بكل من فيهم من بلغاء وفصحاء ـ قادرين على ذلك لأجابوه على هذا التحدي وأسقطوا حجته باتيانهم بمثله ، ولكنهم عندما سمعوا القرآن أقروا بالامر الواقع وأذعنوا لاعجازه ، وعلموا انهم لا يستطيعون المعارضة ، فصدّق قومٌ منهم وأعلنوا اسلامهم ، وركب آخرون رؤوسهم فأصروا على العناد واختاروا طريق الحرب والقوة .

ويروي المؤرخون ان الوليد بن المغيرة المخزومي مرّ يوما في المسجد الحرام فسمع النبي صلى الله عليه وآله وسلم يتلو القرآن ، فأصغى له من بعيد ثم ذهب الى مشركي قومه فكان مما قاله لهم : « لقد سمعت من محمدٍ كلاماً آنفاً ، ما هو من كلام الانس ولا من كلام الجن ، وان له لَحلاوة وان عليه لَطلاوة ، وان أعلاه لمثمر وان أسفله لمغذق ، وانه يعلو ولا يُعلى » (٧) .

ويروي هشام بن الحكم انه اجتمع في بيت الله الحرام سنةً من السنين أربعة من كبار الادباء والمفكرين في عصرهم ، هم « ابن أبي العوجاء وأبو شاكر الديصاني وعبدالملك البصري وابن المقفع » ـ وكانوا من

الدهرية المنكرين لوجود الله عز وجل ـ فخاضوا في حديث الحج ونبي الاسلام ، ثم استقر الرأي لديهم على ضرورة قيامهم بمعارضة القرآن الذي هو أساس هذا الدين ، ليسقط اعجازه بمعارضتهم اياه ومباراتهم له ، وتعهّد كلُّ واحدٍ منهم أن ينقض رُبعاً من القرآن ، وجعلوا الموعد لانجاز هذه المهمة موسم الحج القابل . وعندما اجتمعوا في الميقات المعين في بيت الله الحرام تذاكروا فيما فعلوا ، فأخبرهم ابن أبي العوجاء بأنه قضى العام كله متأملا في مجاراة قوله تعالى : (فلمّا استيأسوا منه خلصوا نَجِيّا) فلم يقدر على مثله ، كما أخبرهم عبدالملك بأنه قضى عامه مفكراً في مباراة قوله تعالى : (يا أيها الناس ضُرِبَ مَثَلٌ فاستمعوا له : ان الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذباباً ولو اجتمعوا له ، وان يسلبْهم الذبابُ شيئاً لا يستنقذوه منه ، ضَعُفَ الطالب والمطلوب) فلم يستطع ذلك ، كذلك كان أمر أبي شاكر مع قوله تعالى : (لو كان فيهما آلهةٌ الاّ الله لفسدتا) حيث عجز عن الاتيان بما يشابهها ، ولم يكن ابن المقفع بأحسن حظاً من أصحابه فقد قضى عامه عاجزاً عن معارضة آية واحدة هي قوله تعالى : (وقيل يا أرض ابلعي ماءك ، ويا سماء أقلعي ، وغيض الماء ، وقُضِيَ الأمر ، واستوت على الجوديِّ ، وقيل بُعداً للقوم الظالمين) ، يقول هشام : وبينما هم في ذلك اذ مرَّ بهم جعفر بن محمد الصادق (ع) فنظر اليهم وقال : (قل لئن اجتمعت الانس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا)(٨) .

* * *

واستمرَّ أعداء الاسلام على اختلاف عقائدهم وأفكارهم وفلسفاتهم ومناهجهم في حربهم للقرآن وفي التشكيك في اعجازه وصلاح أحكامه ، وبذل هؤلاء الاعداء ـ على مرِّ القرون ـ وما زالوا يبذلون من الاموال ومن الطاقات والجهود في سبيل تحقيق هدفهم اللئيم ما لا يدركه

حساب ولا يبلغه تقدير ، ولـكنهم على الرغـم من كل ذلك لم يستطيعوا الوصول الى مآربهم الخسيسة أو تحقيق ما كانوا يأملون من وراء كـل حملات الدس والكذب والتزوير والتشكيك •

وكان فى طليعة ما أثاروا من شُبه فى هذا الصدد تكرارهم للقول بوجود تناقض بين آيات القرآن ينفي اعجازه ويدل دلالة قاطعة ـ بزعمهم ـ على أنه من صنع البشر وليس من وحي السماء ، وضربوا لذلك مثلا قوله تعالى : (آيتُكَ ألاّ تكلّم الناسَ ثلاثة أيام الاّ رمزا) حيث يتناقض مع قوله تعالى فى مكان آخر من القرآن : (آيتُك ألاّ تكلم الناس ثلاث ليالٍ سويا) فان الآية الاولى حدّدت المدة بثلاثة أيام فى حين نصت الآية الثانية على تحديد المدة بثلاث ليال •

وللاجابة على هذه الشبهة يجب أن لا ننسى أنّ لفظ اليوم قد يُطلق ويراد منه فى اللغة بياض النهار فقط كقوله تعالى : (سخّرها عليهم سبع ليال وثمانية أيام) وقد يطلق ويراد منه ـ فى اللغة أيضا ـ مجموع النهـار والليل كقوله تعالى : (تمتّعوا فى داركم ثلاثة أيام) ، كما أن لفظ الليل قد يطلق ويراد به مدة مغيب الشمس كقوله تعالى (والليل اذا يغشى) وقوله تعالى : (سبع ليال وثمانية أيام) وقد يطلق ويراد منه سـواد الليل وبياض النهار كقوله تعالى : (واذ واعدنا موسى أربعين ليلة) •

واذا جاز استعمال لفظي الليل والنهار فى هذين المعنيين ـ وهـو جائز وصحيح فى اللغة ـ لم يكن فى الآيتين الكريمتين أي تناقضٍ أو اختـلاف فى المعنى ، حيث استُعْمِل لفظا الايام والليالي بمعنى مجموع بياض النهار وسـواد الليل •

ومن الشُبَه التي اُثيرت فى هذا الباب ما ادعى بعض المؤلفين من وجود تناقض بين قوله تعالى : (فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر) وقوله جـل

وعلا : (وما تشاؤون الا أن يشاء الله) حيث دلّت الآية الاولى على الاختيار الكامل للانسان وصرحت الثانية بأن الناس مجبورون على أعمالهم لانهم لا يشاؤون شيئاً من الاشياء ــ طاعة أو معصية ــ الا باشاءة الله ، وهذا تناقض صريح •

والجواب على هذه الشبهة :

ان كل انسان يدرك بفطرته الذاتية أنه قادر على أداء جملة من الاعمال ، وان بامكانه أن يفعل منها ما يريد ويترك ما يريد ، ولا أظن ان هناك من يشك ببداهة هذا الادراك • كما أن ما نراه من اجماع العقلاء على مدح فاعل الحَسَن وذم فاعل القبيح برهان على اختيار الانسان في فعله ، اذ لا يصح من العقلاء ــ لولا الاختيار ــ أن يصدر منهم المدح أو الذم • كذلك نرى ان كل انسان يشعر أنّ حركته اذ يهبط بواسطة السلّم من العلو تغاير حركته عند سقوطه من شاهق الى الارض ، حيث يحس انه مختار في الحالة الاولى ومجبور في الثانية •

وقد ثبت بما لا مزيد عليه أن خالق هذه الشؤون في الانسان لم ينعزل عن خلقه بعد الايجاد ، وان بقاء الاشياء واستمرارها في الوجود محتاج الى المؤثّر في كل آن ، وليس خالق الاشياء بالنسبة الى مخلوقاته من قبيل البَنّاء الذى يبني البيت ويقيم جدرانه ثم يستغني البيت عن بانيه ويستمر وجوده وان مات صانعه ، او مثل الكتاب يحتاج الى كاتبه في حدوثه ثم يستغني عنه في مرحلة بقائه واستمراره • بل ان خالق الكون بكل مَنْ فيه وما فيه بالنسبة الى مخلوقاته من قبيل القوة الكهربائية في الضوء حيث لا يوجد الاّ حين تمدّه هذه القوة بتيارها ، ولا يزال يفتقر في بقاء وجوده الى مدد هذه القوة في كل حين ، فاذا انفصلت اسلاكه عن مصدر القوة في آنٍ مّا انعدم الضوء في ذلك الحين ، وهكذا تستمد الاشياء وجميع الكائنات وجودها من

مبدعها الاول فى كل وقت من الاوقات حدوثا وبقاءا ، وهي مفتقرة الى عونه ومدده فى كل حين •

وباتضاح ما سلف يظهر ان أعمال العبد وسط بين الجبر والتفويض ، وله حظ من كل منهما ، فان اعمال قدرته فى الفعل او الترك وان كان باختياره الا ان هذه القدرة وسائر المبادىء حين الفعل تُفاض من الله ، فالفعل مستند الى العبد من جهة ، والى الله تعالى من جهة اخرى ، والآيات القرآنية موضوع البحث متجهة نحو بيان هذا المعنى ، وان اختيار الانسان فى فعله لا يمنع من نفوذ قدرة الله وسلطانه •

وكان استاذنا آية الله الامام الخوئي قد ضرب مثالا لتوضيح الأمر بين الامرين في مجلس درسه فقال ما فحواه :

لو أن انساناً أُصيبت يده بالشلل فلم يَعُدْ يقدر على تحريكها بنفسه ثم أُتيح له ـ طبيّاً ـ أن تُبْعَث فيها الحركة بواسطة جهاز كهربائي يُرْبَط بيد هذا المريض ، بحيث يصبح قادراً على تحريك يده بنفسه فى حالة اتصال يده بذلك الجهاز وتعود الى حالتها السابقة بمجرد انفصالها عن مصدر حركتها ، ففي حال الاتصال والقدرة على تحريك اليد وقيامها بأعمالها الاعتيادية تكون الحركة أمراً بين أمرين ، اذ ليست مستندة الى صاحبها بنفسه كل الاستناد ؛ لان قدرته بحاجة الى الاتصال بالجهاز الذى يمكّن من الحركة ، وليست مستندة الى الجهاز وحده؛ لان الحركة انما كانت باختيار الرجل وارادته •

وهكذا يوضح لنا المثال السابق ان الانسان ليس مجبوراً على فعله لانه يقوم به بدافع اختياره وارادته ؛ ولذلك يستحق عليه الثواب والعقاب، وليس مفوَّضاً اليه الفعل كلّ التفويض لان مبادئه من القوة والحياة والقدرة مُفاضة عليه من الله تعالى فى كل آن •

ومنه يظهر أنَّ الايمان والكفر ـ وكل آثارهما الخارجية ـ صادران عن مشيئة العبد ، وحيث أنه بحاجة الى الافاضة الآلهية فان مشيئته لن تتحقق الا بمشيئة الله ، واذن فلا تناقض ولا تضادّ بين الآيتين الشريفتين اللتين ادُّعي تناقضهما ، وليس فيهما ما يثير الشبهة لولا سوء الفهم أو سوء الغرض. (أفلا يتدبَّرون القرآن ، ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيرا).

★ ★ ★

وعلى الرغم من كون القرآن معجزةً باسلوبه البليغ المتناهي في البلاغة، وبيانه الفصيح الذي لا يستطيع البشر الاتيان بمثله ، وانسجامه الرائع المنَّزه عن كل تضاد أو تناقض أو اختلاف . فان هناك جوانب اخرى لاعجازه لا تقل عن هذا الجانب مطلقاً ، ولعل من أبرزها وأكثرها الفاتاً للنظر ودلالة على المطلوب ما أودع الله تعالى فيه من أنواع المعارف وأسرار العلوم وخفايا الحقائق الكونية ، مما لا سبيل الى احتمال كونه صادرا من بشر عاش تلك الفترة من الزمن ، ولم يكن أمامه من سبيل لادراك مثل هذه الامور .

ومع اقرارنا بأن القرآن الكريم كتاب دين وعقيدة وتشريع ، وليس كتاب فلك أو كيمياء أو فيزياء ، فاننا نشاهد عَرَضاً في غير واحدة من آياته اخباراً دقيقة عن كثيرٍ من سنن الكون ومسائل الطبيعة مما لا يمكن العلم به في تلك العصور الا من طريق الوحي الالهي .

وقد أخذ القرآن باسلوب حكيم جداً في اخباره عن هذه الأسرار ، فصرَّح ببعضها حيث يحسن التصريح ، وأشار الى بعضها حيث تكون الاشارة أولى ، لأن بعض تلك الحقائق مما يستعصي فهمه على عقول الناس يومئذ ، فكان من الحكمة أن يشير اليها اشارةً تتضح لأهل العصور المقبلة حينما يتقدم العلم وتتجلى الحقائق ، وذلك مثل قوله تعالى : (الذي جعل لكم الأرض مهدا) ، فان هذه الآية الشريفة تشير الى حركة الأرض

اشارةً لم تُفْهَم الا بعد قرون ، وقد استعارت كلمة « المهد » تعبيراً عن الاهتزاز والحركة . وانما أشار القرآن الى هذه الحقيقة اشارة غامضة ولم يصرح بها ، لأن الناس كانوا يرون في سكون الارض أمراً بديهياً لا يقبل المناقشة والجدل ، بل كان القول بالحركة في نظرهم مساوقاً للخرافة أو الاستحالة .

وانا اذ نورد فيما يأتي نماذج من تلك الحقائق العلمية التي ذكرها القرآن الكريم تصريحاً تارة وتلميحاً تارة اخرى ، نحيل طالبي التفاصيل على الكتب المعنيَّة بهذا الموضوع ـ وهي كثيرة نسبياً والحمد لله ـ ، وكل غرضنا ـ هنا ـ أن نعرض بعض الأمثلة والشواهد استطراداً في الحديث واتماماً لسياق البحث :

فمن تلك الاشارات العلمية ما جاء في قوله تعالى : (يجعلْ صدره ضَيِّقاً حَرَجاً كأنَّما يَصَّعدُ في السماء) حيث ثبت بالتجربة وبعد أن طار الانسان وحلَّق على ارتفاعات مختلفة : ان الصعود في الجو والتعرض لطبقاته العليا يصحبه حتماً ضيق الصدر حتى تصل الحال الى درجة الاختناق على أبعادٍ تقل فيها كمية الاوكسجين .(٩)

ومن تلك الاشارات العلمية أيضاً قوله تعالى : (وأرسلنا الرياح لواقح) ويقول العلم الحديث :ان التلقيح نوعان : ذاتي يلقِّح به النبات نفسه ، وخَلْطِيٌّ بواسطة انتقال حبوب اللقاح من نبتةٍ الى بويضات نبتة اخرى ، ولا بد من وجود وسائل تقوم بنقل حبوب اللقاح ، وربما كان ذلك لمسافات بعيدة جداً ، وأهمُّ هذه الوسائل هي الرياح . بل ان هناك أنواعاً من تلك النباتات التي يحتِّم تركيبها أن تُلَقَّحَ خلطياً لا يمكن تلقيحها بغير واسطة الرياح .(١٠)

ومن تلك الاشارات ما يؤكّده علماء الفلك من أن الشمس ـ كَأي

نجم آخر ـ لابد أن يعتريها ازدياد مفاجىء في حرارتها وحجمها واشعاعها بدرجة لا تصدِّقها العقول ، وعند ذلك يتمدد سطحها الخارجي بما حوى من لهب ودخان حتى يصل القمر ويختل توازن المجموعة الشمسية كلها • وكل شمس في السماء لابد أن تمر بمثل هذه الحالة قبل أن تحصل على اتزانها الدائم ، ولم تمر شمسنا بالذات بهذا الدور بعد ؟ وبهذا يتضح لنا بجلاء معنى قوله تعالى في تحديد يوم القيامة وفناء العالم : (فاذا برق البصر ، وخسف القمر ، وجُمِعَ الشمس والقمر ، يقول الانسان يومئذ أين المفر) •[١١]

ومن الحقائق العلمية التي ذكرها القرآن الكريم قوله تعالى : (وأوحى ربك الى النحل أن اتخذي من الجبال بيوتاً ومن الشجر ومما يعرشون) وقد حدثتنا المراجع العلمية المعنية بهذا الموضوع ان النحل قد اتخذتْ أول ما اتخذت لها مسكناً من الجبال ، وكانت تعيش في المغارات وتتوالد فيها ، ثم حدثت لها عدة تطورات من جهة البيئة والعوامل الجوية اضطرتها الى الانتقال من سكنى الجبال الى سكنى الاشجار ، فكانت تنتخب الشجرة التي فيها ثغرات وثقوب لتتخذها بيتا ومسكناً •

ولما أراد الانسان أن يتألفها ـ كما فعل مع كثير من الحيوانات ـ صنع لها ما يشبه المساكن التي رآها تسكن فيها ، وكانت تلك المساكن مصنوعة من الطين ، ثم أُدخلت عليها التحسينات باستمرار فَصُنعت من القش ومن الخشب ، ثم تطورت الى ما هي عليه اليوم • واذاً فانحدار النحل أو تطورها في السكنى من الجبال الى الأشجار ثم قابليتها للسكن في أى بيت يعرشه الانسان هو ما ينطق به القرآن[١٢] •

ومن تلك الحقائق العلمية التي أنبأنا عنها القرآن الكريم ما يتعلق بالأرض ، مما كان مجهولاً لم يعرفه العلماء الا في السنين القريبة الماضية ، من أن الارض مهما اختلفت أنواعها لها مسام يتخللها الهواء ، بل ان

اختلاف حجم المسامّ وعددها هو السبب الرئيس في اختلاف نوع الارض طينية أو رملية • ولم يُعْرَف الا أخيراً ان هذه المسام بها هواء ، وان نزول الماء على الارض يدفع الهواء أمامــه ويحل محله ، وبتقــدم علــوم الكيمياء والطبيعة عُرِف ان الطين يتمدد بالماء وينكمش بالجفاف ، وانه عند امتلاء مسام الارض بالماء تتحرك جزيئات الطين بقوة دفع الماء في المسام ، فكأن الارض اذا ما نزل عليها الماء تحركت وزادت في الحجم ، وقد أمكن قياس حركة الارض اذا أصابها الماء كما أمكن معرفة الزيادة فى حجمها • وهذه الحقائق الثابتة التي تعتبر وليدة التقدم العلمي المعاصر كان القرآن قد أنبأنا بها بقوله تعالى : (وترى الأرض هامدةً ؛ فاذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وَرَبَتْ وأنبتت من كل زوج بهيج) والاهتزاز هو الحركة ، وربت أي زادت في الحجم ، وقد فسرت هــذه الحقائق مــا يشاهَد في بعض المباني الحديثة البناء من انهيارات أو شروخ بعد سقوط الامطار أو ابتلال البناء بالمــاء •(١٣)

ومن تلك الحقائق أيضاً ما ذهب اليه العلم الحديث من : أن افرازات الجسم على نوعين : نوع له فائدة في الجسم مثل افرازات الهضم والتناسل وبعض الافرازات الداخلية التي تنظم أجهزة الجسم وأنسجته ، وهــذا النوع ضروري للحياة وليس فيه أي ضرر •

ونوع ليست له فائدة مطلقاً ، بل هو بالعكس يجب افرازه من الجسم الى الخارج ، لأنه مُكَوَّن من مواد سامة اذا بقيت في الجسم أضرتْ به ، وذلك مثل البول والبراز والعرق والحيض •

وعندما يقول تعالى في كتابه المجيد : (ويسألونك عن المحيض قل هو أذىً فاعتزلوا النساء في المحيض) فانه جل وعلا أراد أن يعلمنا ــ قبل أن يصل العلم البشري الى مرحلة معرفة أي شيء عن الافرازات ــ ان المحيض

أذىً وأنه لا يفيد الجسم ، ثم أمر البشر بالاعتزال عن مباشرة النساء خلال الحيض لأن أعضاء المرأة التناسلية تكون في حالة احتقان ، والاعصاب في حالة اضطراب ؛ بسبب افرازات الغدد الداخليـة ، ويكون الاختـلاط الجنسي ضرراً في هذه الحالة ، بل ربما منع نزول الحيض وأثار كثيرا من الاضطراب العصبي ، وقد يكون سبباً في التهاب الأعضاء التناسلية .(١٤)

ومن تلك الحقائق أيضاً قوله تعالى : (فلا اُقسم بمواقع النجوم ، وانه لقسم لو تعلمون عظيم) ويحدثنا علماء الفلك بأن المسافات بين النجوم تبلغ حدَّ الخيـال ، وهي جديرة بأن يقسم الخالق بها ، لأن مجموعـات النجوم التي تكوِّن أقرب مجرّات السماء الينا تبعد عنا نحو ٧٠٠ الف سنة ضوئية ، والسنة الضوئية تعادل عشرة ملايين الملايين من الكيلومترات.(١٥)

وحقيقة اخرى أشار اليها قوله تعـالى : (وأنبتنا فيهـا من كل شيء موزون) حيث دلت هذه الآية المباركة على أن كل النباتات لها وزن خاص، وقد ثبت أخيرا ان كل نوع من أنواع النبات مركب من أجزاء خاصة على وزن محدد مخصوص ، بحيث لو زيد في نسبة بعض أجزائه أو اُنقص لتغيَّرت حقيقته ، وان نسبة بعض هذه الاجزاء من الدقة ما نحتـاج في معرفتها الى أدق الموازين التي عرفها البشر .(١٦)

* * *

وهكذا يكون الجانب العلمي للقرآن دليلاً متمماً للجانب البلاغي في اقامة البرهان الجلي والدليل القاطع على كونه كتاب الله الذى لا ريب فيه ومعجزة هذا الدين الباقية بقاء الدهر .

(انَّ هذا القرآن يهدي للَّتي هي أقوم ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أنَّ لهم أجراً كبيرا) (صنع الله الذي أتقن كل شيء ، انه خبير بما تفعلون) .

(١) بحار الانوار : ١٩/٦ .
(٢) سنن الدارمي : ٢/٤٣٥ .
(٣) الوسائل : ٢/٣٧٠ .
(٤) تفسير القرطبي : ١/٦ .
(٥) الوافي : ٥/٢٦٤
(٦) البيان : ١/٧٦ ـ ٧٩ .
(٧) المعجزة الخالدة : ٢١ .
(٨) الاحتجاج : ٢٠٥ .
(٩) الله يتجلى فى عصر العلم : ١٦٦ .
(١٠) القرآن الكريم والعلوم الحديثة : ٨١ ـ ٨٥ .
(١١) الله يتجلى فى عصر العلم : ١٦٧ .
(١٢) القرآن الكريم والعلوم الحديثة : ١٩ ـ ٢١ .
(١٣) القرآن والعلم الحديث : ٨٢ ـ ٨٣ .
(١٤) الاسلام والطب الحديث : ٤٠ .
(١٥) الله يتجلى فى عصر العلم : ١٦٦ .
(١٦) البيان : ١/٥٤ .

التخطيط القرآني للحياة

أشرنا في الفصل السابق الى أن الله تعالى لم يرد من انزال القرآن الكريم أن ينحصر دوره لدى الناس في دائرة التلاوة الساذجة فقط ، ولم يكن يهدف منه الى أن يصبح كتابا يتسابق المتسابقون في حسن قراءته واجادة ترتيله ليتكرر بثّه من أجهزة الاذاعة ومجالس التأبين ، ويتنافس المتنافسون في طرق تزويق أوراقه وترصيع غلافه ليوضع على الرّف كما توضع التحف واللوحات الثمينة ، بل أراد له أن يكون دستور دولة ، ومنهج عمل ، واسلوب فكر ، وخطّ سلوك ، وطريق سعادة في الدنيا والآخرة .

ولهذا كان من الضروري لكل مسلم أن يفرغ من وقته ما يكفيه لفهم مقاصد القرآن ومعانيه ، ليحصل على الاحاطة الشاملة والمعرفة الواعية المدركة لمنهج القرآن وتخطيطه الدقيق لشؤون الدنيا والدين ، ثم ليستطيع العمل بأحكامه التي قرّرها لتنظيم الحياة بكل جوانبها ومجالاتها وبكل ما يضمن مصالح الافراد والمجتمعات على حد سواء .

* * *

ان تفسير القرآن مهمة صعبة شاقة تحتاج الى كثير من الجهد ومن الاطلاع على عدد من العلوم التى يتوقف عليها فهم القرآن ، والشيء الباعث

للأسف أن نرى كلَّ من هبَّ ودرج وهو يدَّعي معرفةً بمعاني القرآن وقدرةً على تفسيره وبيان مقاصده ، ومن ثَمَّ الاستدلال ـ بما يدعي فهمه ـ على تغليف ما يريد دسه أو تبرير ما يشتهي فعله •

وهكذا نرى مَنْ يدَّعي استنباط الأحكام الاشتراكية من القرآن ؛ ومن ينسب الافكار الديموقراطية والنظام الجمهوري اليه ، ثم نرى على العكس من يدعي أنَّ القرآن كتاب رأسمالي في منهجه الاقتصادي ، دكتاتوري في خطه الاجتماعي ، ملكيٌّ في نظامه السياسي •

والصحيح أن القرآن قرآن فحسب ، وان منهجه وخطه ونظامه اسلامي بحت ولا شيء غيره ، وان موارد الالتقاء المحددة مع هذا النظام أو ذاك من الأنظمة الوضعية لا تصحح النسبة ولا تجعل منه داعية لنظام معين منها •

ولتسهيل مهمة فهم القرآن وادراك معانيه نشير الى أن طرق تفسير القرآن أربعة ، منها ما هو مشروع ومنها ما هو ممنوع :

الطريقة الاولى ـ تفسير القرآن بالقرآن :

وذلك بأن نعرض معنى كل آيةٍ قرآنية على مجموع الآيات القرآنية الاخرى ، لنفهم من المجموع حقيقة المعنى المقصود بتلك الآية كما مرَّ آنفا في آيتي الاشاءة ، حيث نسبت أولاها اشاءة الانسان لنفسه ونسبت الثانية تلك الاشاءة لاشاءة الله تعالى ؛ وقلنا بأن الجمع بين الآيتين أن الاشاءة الانسانية تستند الى الانسان ـ من جهة ـ باعتباره مختاراً في أفعاله ، وتستند الى الله أيضا ـ من جهة اخرى ـ باعتباره مصدر الافاضة •

ومثل ذلك ما ورد في قوله تعالى : (يدُ الله فوق أيديهم) وقوله تعالى : (ويبقى وجهُ ربك) وقوله تعالى : (على العرش استوى) حيث دل ظاهر هذه الآيات على جسمية الباري ، ولكننا ندرك المقصود بوضوح

عندما نقرأ قوله تعالى: (لا تدركه الابصار) وقوله تعالى: مخاطبا نبيه موسى ـ ع ـ (لن تراني) وسائر الآيات الاخرى النافية للجسمية ، فنفهم حينئذ أنَّ اليد بمعنى القوة والوجه بمعنى الذات والاستواء بمعنى الاستيلاء ٠

ومثل ذلك أيضاً قوله تعالى : (أوفوا بالعقود) حيث دلَّ بعمومه على أن العقود المتفق عليها بين طرفين يجب الوفاء بها بأجمعها حتى عقد الدَّيْن بالفائدة ، ولكن قوله تعالى : (وحَرَّم الربا) أوضح استثناء هذا العقد بالذات من مجموع العقود ٠

الطريقة الثانية ـ تفسير القرآن بالسنة :

وذلك بأن نرجع الى الأحاديث الصحيحة المروية عن النبي (ص) باعتباره لا ينطق الاّ عن الوحي والأئمة الطاهرين باعتبارهم عِدْل القرآن في حديث الثقلين ؛ في تفسير الآيات المجملة ٠

والقرآن ـ كما يعلم كل مسلم ـ قد عُنِيَ ببيان القواعد العامة للأحكام الشرعية ولم يبيِّن التفاصيل ، فأشار الى تشريع الوضوء والغسل والتيمم والى وجوب الصلاة والصوم والزكاة والخمس والحج والجهاد ؛ ولم يبين سائر أحكام هذه الواجبات، فتكفَّلت السنة النبوية والأحاديث المباركة شرح كل هذه الاحكام وتفصيل سائر أجزائها وشروطها وموارد سقوطها وكافة ما يرتبط بها من شؤون ٠

الطريقة الثالثة ـ تفسير القرآن بلغة العرب :

هناك استعمالات قرآنية لبعض الالفاظ التي لا علاقة لها بالأحكام الشرعية كقوله تعالى : (إِن تستغفرْ لهم سبعين مرة فلن يغفرَ اللهُ لهم) وقوله تعالى : (ثُمَّ في سلسلة ذرعها سبعون ذراعاً فاسلكوه) ، فقد تكرر في هاتين الآيتين لفظ « سبعين » من دون أن نعلم أن الغرض منه التمثيل بهذا العدد أو حقيقة السبعين ، وفي هذه الحالة نرجع الى لغة العرب لنفهم منها معنى السبعين ، حيث ورد فيها ان هذا العدد قد استعملته العرب

للمبالغة والكثرة ، وبهذا يتضح لنا أن القصد القرآني به هو الكثرة وليس الدقة .

الطريقة الرابعة ـ تفسير القرآن بالرأي :

وذلك بأن نفسر الآية القرآنية بحسب ظنوننا وبما يوحي به استحساننا ، بعيداً عن التمحيص والتدقيق والتعمق في الموضوع . وعندما أشكل على أحد حكام العراق السابقين بأن مساواة الذكر بالانثى في قانون الأحوال الشخصية مخالف" لصريح القرآن اذ يقول تعالى (يوصيكم الله في أولادكم للذكر مثل حظّ الأُنثيين) قال : بأن كلمة الوصية لا تتضمن الزاما بل كل ما فيها الرجحان فقط ، ولذلك فان مخالفة الوصية ليست خروجاً على القرآن .

وهذا التفسير للوصية انما هو تفسير بالرأي والاستحسان ، لان المتتبع لآيات القرآن يعلم ان لفظ الوصية ومشتقاتها قد استُعمل في الواجبات الحتمية ، مثل قوله تعالى : (وأوصاني بالصلاة والزكاة ما دمتُ حيّا) وقوله تعالى : (ولا تقتلوا النفسَ التي حرَّم الله الا بالحق ذلكم وصّاكم به لعلكم تعقلون) وقوله تعالى : (ولقد وصَّينا الذين اوتوا الكتاب من قبلكم واياكم أن اتقوا الله) ، فقد دلَّت هذه الآيات وأمثالها على أن الوصية ملزمة وليست رجحانا كما يدَّعي المدعون .

وعندما ننعم النظر في هذه الطرق السالفة الذكر نجد أن الطرق الثلاثة الاولى في التفسير هي الطرق المشروعة التي يجوز للمفسر تفسير القرآن على ضوئها ، وأما الطريقة الرابعة فهي ممنوعة شرعا ، لان دين الله لا يجوز اخضاعه للرأي والذوق والاستحسان . قال تعالى : (ولا تَقْفُ ما ليس لك به علم) وقال تعالى : (قل الله أذن لكم أم على الله تفترون) .

★ ★ ★

ان المسلم الراغب في فهم معاني القرآن بحاجة الى جانبين من المعرفة : جانبٍ يُعنى بفهم مفردات الألفاظ ومعانيها المقصودة بعد الاستعانة بالسنّة واللغة ؛ وهو ما يصح أن نسميه « الفهم اللفظي للقرآن » • وجانبٍ ثان يُعنى بفهم الفكرة العامة والخطوط الرئيسة للتشريع والنظام ؛ وهو ما نرجح تسميته بـ « فهم منهج القرآن » ، وعندما يستوعب المسلم هذين الجانبين يكون محيطاً ـ بحقٍ وصدقٍ ـ بمعاني القرآن ، ومتمكناً من تفسيره ، وقادراً على العمل به والانتهاج بنهجه •

واذا كان « الفهم اللفظي للقرآن » محتاجاً الى مراجعة مصادر اللغة وكتب التفسير ومؤلفات الحديث ، مما لا يتسنى لنا الخوض فيه خلال هذه البحوث ، فانّ « فهم منهج القرآن » بحاجة الى تسليط بعض الأضواء عليه بشكل موجز ، لنعرف بعضا من تلك الخطوط العريضة لهذا المنهج •

ولعل أول ما يلفت النظر في هذا المنهج ويكوّن الظاهرة البارزة للقرآن كأساسٍ للعقيدة ودستور للحياة هو محاربته العنيفة لجانبي الافراط والتفريط في كل المجالات • قال تعالى : (ولا تجعلْ يدك مغلولةً الى عنقك ولا تبسطها كلّ البسط) وقال أيضا : (ولا تجهرْ بصلاتك ولا تخافتْ بها وابتغِ بين ذلك سبيلا) وقال جلّ وعلا : (كلوا واشربوا ولا تسرفوا) وقال عزّ من قائل : (وكذلك جعلناكم أُمّةً وَسَطا) وعلى هذه الشاكلة عدد آخر من الآيات الشريفة •

ان منهج (الوسط) ومحاربة الافراط والتفريط هو المنهج العملي الذي تستطيع البشرية تحت ظلاله أن تعبد الله حقّ عبادته فتؤدي حقّ النفس الراغبة في الطمأنينة والاستقرار ، وأن تعمل للدنيا فتؤدي حقّ الجسد باستمتاعه بسائر وسائل المتعة المشروعة وتبني مجتمع السعادة والرفاهية •

فالتحلل من العقيدة والدين فراغ قاتل وقلق مدمِّر وشعور رهيب بالضياع ، والرهبانية المتزمتة محاربة لكل ملذات الحياة المباحة وخروج على الفطرة الانسانية ذات الرغبات الواسعة ، قال تعالى : (قل مَنْ حرَّم زينةَ الله التي أخــرج لعباده والطيباتِ من الرزق) وقال عزَّ وجل : (ورهبانية ابتدعوها ما كتبناها عليهم) وقال أيضا : (يا عبادي الذين آمنوا ان أرضي واسعة فاياي فاعبدون) •

ان هذا المنهج القرآني السليم قد انعكس على كل شؤون العقيدة وكل فروع التشريع وكل مفردات النظام الاجتماعي ، في كافة جوانب العبادات والمعاملات ، وفي سائر المجالات الفردية والاجتماعية ، وبذلك كان الخط الرئيس للفكر الاسلامي الذي حمله القرآن الكريم للبشرية مصدر هدىً ونور ، ومبعث رفاء وخير ، وركيزة سعادة وسلام •

وحيث ان استيعاب هذا المنهج بكل مفرداته ومجالاته غير ممكن في هذا الاستعراض المبني على الايجاز فاننا نكتفي هنا بضرب بعض الامثلة على ذلك لتوضيح المقصود :

ولعل الاخلاق الاسلامية اولى المجالات بالاستعراض ؛ تمثيلاً على هذا المنهج (الوسط) في التخطيط القرآني للحياة •

وانما اخترنا الاخلاق الاسلامية دون غيرها من الجوانب مثالاً على المطلوب ، لأنها في نظر كثيرٍ من البعيدين عن فهم الاسلام مجموعةُ أفكارٍ خيالية مثالية ليس لها فيعالم الواقعية أي مجال ، في حين انها ـ بحقيقتها ـ أخلاق مستمدة من طبيعة الانســان الغريزية ومسايرة لفطرته الذاتية ، وليس للاسلام فيها الاّ دور التهذيب والتشذيب الذي تقتضيه مصلحــة الانسان كفرد ومصلحته كجزء من المجتمع •

انها أخلاق شاملة جامعة تستوعب كل جوانب السلوك العام :

أخلاق للفكر ، تأمر بالتعقل والتعلم وتنفر من التقليد والتضليل (قل هاتوا برهانكم ان كنتم صادقين) ، (أن تقوموا لله مثنى وفرادى ثم تتفكروا) .

أخلاق للنفس ، تأمر بالصدق والامانة والاحسان وتنهى عن الكذب والخيانة والفساد (ان الله يأمر بالعدل والاحسان وايتاء ذي القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي) .

أخلاق للسلوك ، تتضمن كل قواعدُ اللياقة والمجاملة أو ما يسمى بالآداب العامة (واقصدْ في مشيك واغضضْ من صوتك) ، (ولا تمشِ في الأرض مرحا) ، (ولا تجسسوا ولا يغتبْ بعضكم بعضا) ، (لا يسخر قومٌ من قوم) ، (ولا تلمزوا أنفسكم ولا تنابزوا بالألقاب) .

انها أخلاق واقعية لأنها تفترض في الانسان السعي للكمال لا بلوغ الكمال المطلق ، وتفترض في الانسان انه قد يخطأ وقد يسهو ، وقد يعثر وقد يكبو ، فرفع عن الناس الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه ، وفتح لهم باب التوبة (والذين اذا فعلوا فاحشةً أو ظلموا أنفسهم ذكروا اللهَ فاستغفروا لذنوبهم) .

وهي واقعية لأنها افترضت في الانسان أن يولد وفيه قوىً وبواعث ودوافع (ونفس وما سوّاها فألهمها فجورها وتقواها قد أفلح من زكّاها وقد خاب من دسّاها) .

وهي واقعية لأنها لم تفرّق بين الرجل والمرأة كما فرّقت مجتمعات كثيرة في التاريخ (اني لا أضيع عملَ عاملٍ منكم من ذكر أو انثى بعضكم من بعض) .

وأخلاق القرآن قائمة على الود والمحبة والتعاون (انما المؤمنون اخوة) ، (انّا خلقناكم من ذكرٍ وانثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا) ، ولكنه

الحب البعيد عن قبول الذل والخنوع والرضا بالعدوان ، ولذلك وضع القرآن شريعة العقاب في داخل الدولة الاسلامية (ولكم في القصاص حياة) (ان النفس بالنفس والعين بالعين والأنف بالأنف والأذن بالاذن والسن بالسن والجروح قصاص) (ومن قُتِل مظلوماً فقد جعلنا لوليّه سلطانا) ، ووضع شريعة الحرب للخارج (وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا) ، ولكن القرآن مع اقراره للقتال قد غمر شريعة القوة بالاخلاق أيضا ، فنهى عن الاعتداء والافساد في الارض .

وعندما نريد ملاحظة (المنهج الوسط) في هذه الاخلاق القرآنية نعود الى مفردات هذه الاحكام الاخلاقية فنستعرض نماذج منها لنرى أثر المنهج المشار اليه في تلك المجالات .

واذا أخذنا الكذب مثالاً للبحث نجد ان التأكيد على النهي عنه قد بلغ الغاية ، وحسبنا قوله تعالى : (انما يفتري الكذبَ الذين لا يؤمنون) ، ولكنه مع كل ذلك لا يغفل بعض الاستثناءات في أضيق الحدود ، لما فيها من اعتبارات أسمى وأهم من حرمة الكذب .

فالحرب اذ كانت اعلاناً لفقدان الثقة بين المتحاربين ، فلا بأس بالكذب فيها لأن الحرب خدعة ، وليس معنى هذا أن تتعطل الفضيلة في الحروب ، فما زال للشجاعة مكانها في ميدان القتال ، وللصدق موضعه عند المفاوضة الصريحة والحديث الجاد ، وللرحمة محلها فلا يتبع المدبر ولا يجهز على الجريح ولا يؤذى الشيوخ والنساء والأطفال .

وحديث الزوجين قد أُبيح فيه الكذب ، لانه ان غاب فيه الصدق حيناً فقد قامت التضحية في كل الاحيان ، والزوج حين يتحدث عن حبه لزوجته وهو لا يحبها انما يريد أن ينكر ذاته ويضحي بمشاعره من أجل الوفاق والوئام .

والاصلاح بين الناس فضيلة يجوز فيها غض البصر عن فضيلة اخرى هي فضيلة الصدق ، ولذلك سمح بالكذب في وساطة الاصلاح •

ولكن ذلك انما جاز في حدود ، اذ ليس معنى الكذب في الحرب انه كذب على طول الخط ، وليس معنى الكذب بين الزوجين حيناً انه الكذب الذى يعقّد الحياة الزوجية ولا يعالج شيئاً ، وليس معنى الكذب للاصلاح أن يكون كتمانا لامور جوهرية لا تلبث أن تنكشف فتسوء العلاقات من جديد •

ولنأخذ مثلاً آخر للمنهج الوسط فى الاخلاق القرآنية : وهو الحب والبغض :

والقرآن لم يحارب هذه الغريزة أبدا ، فقد يحب الانسان شخصاً مّا وقد يكره شخصا آخر ، وتلك غرائز نفسية لم تتحكم فيها الشريعة ولم تتعرض لها بزجر ونكير ، انما الذي عالجه القرآن هو مظهر الحب والبغض وآثارهما الخارجية ، فان الانسان بحسب طبيعته انْ أحبَّ شخصا وقف الى جانبه وحاباه ومال اليه فى حقه وباطله ، واذا كره شخصا تحامل عليه وقذفه واتهمه بكل موبقة ، والقرآن عندما أراد التخطيط السلوكي للحياة نهانا عن هذه الآثار الفاسدة للحب والبغض وأمرنا بالعدالة في المعاملة دون العدالة فى الاحساس النفسي : (ولا يجرمنكم شنآنُ قوم على ألاّ تعدلوا) (واذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى) •

ومثـال ثالث لهذا المنهج القرآني فى الأخـلاق : ذلك هو التمني والتشهي :

ان الانسان عندما يرى شخصاً من الناس منعّماً مرفّهاً من أي جهة من جهاته فانه سيندفع بطبيعته وغريزته الى تشهّي مثل ذلك وتمنيه ، وبما أنّ التشوف والتطلع هو طريق الطموح والتقدم فان القـرآن لم يمنـع الانسان عن ذلك ، بل ترك له المجال مفتوحا واسعاً ليكون التمني دافعاً له

على اجادة العمل والاهتمام بالسعي نحو تحصيل ما تشهّاه في غيره ، وبذلك ترك للغريزة ميدانها الكبير في حثّ صاحبها على الوصول لما تمناه ، ولكنه أراد أن يصرف الانسان عن بعض ما يترتب على هذا التمني من حقد أو حسد أو رغبة في سلب نعمة الآخرين أو شماتة بمن ينكب من هؤلاء المتنعمين ، فنهى عن كل ذلك (ولا تمدّنّ عينيك الى ما متعنا به أزواجاً منهم زهرة الحياة الدنيا) ، ثم حثّ المتمني للنعم على العمل الجاد والدعاء المخلص (واسألوا اللهَ من فضله) •

وهكذا يتجلّى لنا تطبيق منهج (الوسط) فى الأخلاق القرآنية بكل وضوح ، فلا افراط فى التزمت ولا تفريط بكل شيء • وانما هي الغريزة تأخذ حقها والنظام العام يفرض نفسه •

★ ★ ★

واذا أردنا أن نستقرىء مجالاً آخر من مجالات التشريع للتمثيل على منهج (الوسط) والتأكد من سريانه فى سائر الجوانب التي عني بها القرآن ، كان نظام الحياة بمعناه الواسع الشامل لكل جوانبها التي تمس مصالح الناس ، مما اصطلحنا على تقسيمه فى عصرنا الحاضر الى جانب سياسى وآخر اقتصادي وثالث اجتماعي والى آخر ما في الحياة العامة من جوانب • كان هذا النظام خير المجالات لدراسة مدى انطباق هذا المنهج عليه ، ومدى محاربة الافراط والتفريط في خطه الرئيس •

لقد قام النظام الرأسمالي على أساس الايمان المطلق بالفرد ، وجعل هدف الدولة حماية الافراد ومصالحهم الخاصة ، وأطلق لهم كل الحرية سياسيا واقتصاديا واجتماعيا ، وسمح بتضخيم الثروات الفردية وتكديس الاموال ومضاعفة الدخل من أي طريق كان ومهما كانت الوسائل •

ونتج عن هذا النظام وما تكفله من حرية فردية واباحة لمختلف أسباب جمع الثروة ولادة أقلية تكدست فى يدها الثروة العامة ، وأصبحت

تستطيع ـ بحكم هذه الثروة وبحكم ما تهيئه لها من مركز اقتصادي واجتماعي كبير ـ أن تهيمن على الدولة وتسخّر التشريع لصالحها والسلطةَ لخدمة مآربها • وبسيطرتها على السلطة وشعورها بالحاجة الى أسواق خارجية لتصريف فائض انتاجها تقدمت نحو كثير من امم الدنيا وشعوب العالم ـ ومعها قوتها المادية الكبرى ـ فسيطرت على رقاع شاسعة من الأرض ، واستعمرت آلاف الملايين من الناس ، وظلمت ما شاءت لها مطامعها أن تظلم ، وما زال العالم حتى اليوم يئن من آلام الاستعمار ومآسيه •

اما النظام الاشتراكي ـ او الماركسي بتعبير أدق ـ فقد قام على أساس معاكس للنظام الرأسمالي ، فلم يعترف بأي قيمة للفرد كفرد ، وألغى الملكية الخاصة بزعم أنها مصدر مشاكل العالم ، وجعل المجتمع هو الهدف وهو المحور بعيدا عن مصالح الافراد • وبذلك أراد هذا النظام تجميد الواقع العملي والفطرة الانسانية والغريزة البشرية وترتب على ذلك من الوان الابادة والقتل الجماعي ما لا يدخل في حساب •

اما المنهج القرآني فهو « الوسط » من كل ذلك :

فليست للفرد حرية مطلقة في التصرف ، اذ لا يسمح له بالظلم والبغي والطغيان والفساد في الارض والاعتداء على كرامة المجتمع المتمثلة بكرامة ابنائه (انما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون في الارض فساداً أن يقتّلوا أو يصلّبوا أو تقطّع ايديهم وارجلهم من خلاف أو ينفوا من الارض) ، (الذين طغوا في البلاد فأكثروا فيها الفساد فصبّ عليهم ربكَ سوط عذاب ان ربك لبالمرصاد) ، (ولا تعثوا في الارض مفسدين) ، (انما السبيل على الذين يظلمون الناس ويبغون في الأرض بغير الحق اولئك لهم عذاب اليم) ، (ومن يظلمْ منكم نذقْهُ عذابا كبيرا) ، (ان للطاغين لَشَرّ مآب) ، (ان الذين يحبون أن تشيع الفاحشة في الذين

آمنوا لهم عذاب اليم) •

وليس المجتمع هو الكل في الكل بعيداً عن مصالح الناس وكرامة الفرد (ولقد كرّمنا بني آدم وحملناهم في البر والبحر ورزقناهم من الطيبات) (من قتل نفسا بغير نفس او فسادٍ في الارض فكأنما قتل الناس جميعا ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعا) •

فلكلٍّ من الفرد والمجتمع حقوق خاصة وحدود معينة لا يصح تجاوزها ، وبذلك لم تمنع الملكية الخاصة (ولا تنسَ نصيبك من الدنيا) ، (هو الذي جعل لكم الارضَ ذلولاً فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه)، (من حرَّم زينةَ الله التي أخرج لعباده والطيباتِ من الرزق) ، كما لم يسمح لها بالاستغلال والتكديس وعدم استفادة المجتمع منها (فى اموالهم حق معلوم للسائل والمحروم) (والذين يكنزون الذهب والفضةَ ولا ينفقونها فى سبيل الله فبشِّرْهم بعذاب اليم) •

وهكذا يتضح لنا منهج القرآن في الجمع بين ما تتطلبه الغرائزالانسانية المتمثلة في حب الذات بكل ما تعطيه هذه الكلمة من معاني الطموح والتقدم وبين ما تقتضيه المصالح العامة من تحديد لتلك الغرائز وتنظيم لشؤون حب الذات ، فلا فردية مطلقة على حساب المجتمع ولا تذويب للفرد فيه •

وصدق الله العظيم حيث يقول :

(وكذلك جعلناكم أُمّةً وسَطاً لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسولُ عليكم شهيدا) •

منهج البرهنة في القرآن

للقرآن الكريم ـ كما يعلم كلُّ من تدبَّر فيه ـ عناية خاصة ببيان الاسس الرئيسة التي يقوم عليها كيان العقيدة ، واهتمام كبير باقامة البراهين والأدلة على ذلك ، ليكون الايمان بها قائما على الاقناع والاقرار المنبعث من العقل والقلب معا .

وللقرآن الكريم اسلوب خاص ومنهج معين في الاستدلال على اثبات تلك الحقائق ، وفي توجيه العقل نحو الايمان بها بوعي وقناعة واطمئنان . ولعل من أبرز ملامح هذا المنهج انه اعتمد التجربة أساسا للعلم ، وجعل الحواس طريقاً للمعرفة ، واستند الى المقدمات الواضحة المسلَّمة لاثبات النتيجة المطلوبة ، ولكنه ـ مع ذلك كله ـ لم يهمل العقل والفكر ، بل جعلهما هدف الدليل ومقصد البرهان ، وبهذا كان لتكوين المعرفة الانسانية في نظر القرآن تفسير خاص يختلف عن سائر النظريات التي فسَّر بها الفلاسفة نشوء المعرفة ومصادرها ، ثم كان للبرهان في القرآن اسلوبه الخاص الذي يعتبر أسمى ما توصل اليه الفكر البشري في منهج البرهنة والاستدلال .

* * *

ولقد كان في طليعة الاسس العقيدية التي عني بها القرآن بحث حقيقة

« المبدأ والمعاد » ، التي تتلخص في ضرورة الاعتقاد بوجود خالق لهذا الكون بكل ما فيه ومَنْ فيه ، وضرورة الاعتقاد بوجود موعد معين يحاسَبُ فيه الانسان على كل ما قدَّم من عمل وأسلف من فعل ، انْ خيراً فخير وانْ شرّاً فشر ٠

ولم يكن غرض القرآن من الاهتمام بهذا الجانب غرضا نظريا بحتا كما قد يتصور بعض المتصورين ، وانما كان للمبدأ والمعاد الدور الأكبر والاساس في تنظيم الحياة وتسيير شؤونها على منهج صحيح ، ذلك لاننا لا نستطيع القيام بالتخطيط السليم للمسألة الحياتية اذا نظرنا اليها بالمنظار المادي الجامد وفرضناها فترة زمنية معينة ليس قبلها شيء وليس بعدها شيء ، لان غرائز الانسان وفطرته ان تجردتْ من الايمان بالقَبْلية والبَعْدية ولم تفهم من الحياة الاّ أنها الأول والأخير ، لم يكن في الامكان الحد من رغباتها وصد اندفاعاتها والتحكم في شهواتها ، حيث لا روح ولا غيب ولا مبدأ ولا معاد ٠ ولذلك كان من الضروري اقامة الحياة على أساس وجود خالق لها ، قرَّر لكل شيء نظامه ، وفرض لكل شأنٍ أحكامه ، وانه لابد من اطاعته فيما قرر وفرض لانه يعلم عواقب الامور ويدرك مصالح العباد ، بلا حيف في الحكم ، ولا جور في القضاء ، ولا انحياز لجانب دون جانب ، ولا تفضيل لفئة على اخرى ٠ كما كان لابد من الاقرار باليوم الآخر الذى يحاسب فيه الناس على الطاعة والمعصية ، ليُعطى المطيع ما يستحق من ثواب ، ويُفْرَض على العاصي ما يستأهل من عقاب ، وليحسَّ الانسان في الدنيا ان سائر ما حرمه النظام من التمتع به سيُعَوَّض عنه أحسن العوض ، وبذلك يبقى لحب الذات مجاله الطبيعي في الحياة ، فلا يشعر الانسان بالحرمان نتيجة ما في النظام من محرمات وممنوعات ، وانما يرى ان عاقبة هذا الحرمان التعويض الافضل والجزاء الامثل ، فلا يأسف على ما فات من يديه من متع وملذات ٠

ولهذا بحث القرآن هاتين الحقيقتين بحثاً مفصلا ، تكرر في أكثر سوره ، وتناثر في عدد كبير من آياته ، وأقام لاثباته من الادلة ما لا مزيد عليه .

وحيث ان كتابي « مفاهيم اسلامية » فيما طبع من اجزائه وما لم يطبع منه قد أولى هذا الجانب قدرا كبيرا من الاسهاب والتفصيل ، فاننا سنوجز الحديث في هذا الاستطراد ، لان الهدف منه ـ هنا ـ هو التعرف باسلوب القرآن في الاستدلال ومنهجه فى البرهنة ، باعتباره الاسلوب الفريد والمنهج المتميز بين أساليب الاثبات ومناهجه ، بما اعتمده من مخاطبة كلٍّ من العقل والحس ، بلا غيبيةٍ محضة ولا تجربة مجردة .

ولقد كان اهتمام القرآن في أمر اثبات الخالق الموجد يفوق اهتمام كل الكتب السماوية المنزلة ، لأن التوراة والانجيل ـ وهما طليعة الكتب السماوية السابقة ـ قد خاطبتْ شعوباً تؤمن بالله ، فلم تُعْنَ بهذا الجانب ، بل اتجهت نحو تحذير هؤلاء المؤمنين بالله من غضب الخالق ، وتذكيرهم بوعده ووعيده ، ومحاربة نفاق الرؤساء والكهان واستغلالهم الدين والشعائر في الاثراء وكسب المال وتحصيل الجاه .

وعند نزول القرآن كان الناس في اختلاف كبير من ناحية الايمان بالله تعالى ، فملحد ومشرك ومثلّث ، ولكلٍّ منهم اعتقاده الخاص واسلوبه الخاص في الخلق والعبادة ، فكان لابد للقرآن أن يولي هذه الناحية اهتمامه الكبير ، لأن المخاطبين برسالة الاسلام ـ منذ يومها الاول وعلى امتداد بقاء الدنيا ـ فى حاجة ماسة لمعرفة الحقيقة والاقتناع بها عن وعي وهدىً وبرهان مبين .

وتوجهت الآيات القرآنية التي عنيت بهذا الموضوع الى عقل الانسان ، توقظه من سباته برفق ، وتسير به نحو الغاية بتوأدة ، وترشده الى الطريق

السوي بلين ويُسر ، وتبسط أمامه شواهد الخلق وآثار الصنعة بجلاء ووضوح ، وتنبهه على دقائق الكون وحقائقه بحكمة وهدوء ، وتوصله الى نتائج هذه الجولة الفكرية بكل أناة وصدق (انَّ في خَلْق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار والفُلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس وما أنزل اللهُ من السماء من ماءٍ فأحيا به الارضَ بعد موتها وبثَّ فيها من كل دابةٍ وتصريف الرياح والسحاب المسخَّر بين السماء والارض لآياتٍ لقوم يعقلون) .

★ ★ ★

لقد توجهت مجموعة من الآيات الشريفة الى البرهنة على وجود الله تعالى من طريق التأمل في خلق الانسان وما تضمنه هذا الخلق من تعقيدات وشؤون لا يمكن أن تكون بلا قدرة قادر ولا تصميم خالق :

(أفرأيتم ما تُمنون ، أأنتم تخلقونه أم نحن الخالقون) .

(فلينظر الانسان مِمَّ خُلِق ، خلق من ماء دافق ، يخرج من بين الصلب والترائب) .

(الله أخرجكم من بطون امهاتكم لا تعلمون شيئاً وجعل لكم السمع والابصار والأفئدة) .

الى كثيرٍ مما شابه هذه الآيات في المضمون .

ولو عاد الانسان الى جسمه يفكر فيه ، وبخاصة بعد أن كشف العلم الحديث أكثر خفاياه لرأى العجب العجاب ، ولو توقَّف قليلاً عند التفكير في تلك الخلية الواحدة التي تكوَّن منها لرأى أن هذه الخلية تكوِّن الصلبَ من العظام ونصف الصلب من الغضاريف والرخو من اللحم ، وهي نفسها تكوِّن اللزج من الأنسجة والسائل من الدماء ، وتكوِّن ـ بالأخرة ـ الانسان كله بكل أعضائه وجوارحه وأجزائه ، ومنها

ينشأ القصير والطويل والأبيض والأسود على السواء • وهذه الخلية عبارة عن حياة معقدة أمكن للعلم أن يكتشف تراكيبها ويقيس حركتها ويحلّل مادتها وطريقة انقسامها ، ولكن سرّ الحياة فيها ما زال مجهولا لأنه من صنع الله •

ولو أردنا البحث في كيفية تطور هـذه الخلية ، جنينـاً في البطن ، ووليداً في المهد ، ورضيعاً على الثدي ، ونمواً متصاعداً نحو الفتوة والشباب ، وانحداراً نحو الهرم والشيخوخة ، ثم تمعنّا في عمل كل عضوٍ من الأعضاء وجزء من الأجزاء لما وسعنا حديث شهر كامل بكل ساعاته وكتاب ضخم بسائر صفحاته فـ (تبارك الله أحسن الخالقين) •

وهكذا نجد فى التأمل فيما سلفت الاشارة اليه من عجائب أجهزة الانسان فى سمعه وبصره ، وشمه وذوقه ، وفمه ومعدته ، وعظمه وعصبه ، وعضـله وأنسجته ، ودورته الدموية وكليتيه ، ما يقيم الف دليل ودليل على أن هذا النظام الدقيق فى الجسم لم يُخْلَق عشوائيا ولم يوجـد صدفة ولم يحدث نتيجة حركة المادة الصماء العمياء المتخبطة •

★ ★ ★

ثم اتجهت مجموعة اخرى من الآيات الشريفة الى البرهنة على وجود الله تعالى من طريق التأمل فى خلق الحيوان وما اشتمل عليه من دقة ونظام لا يمكن تحققهما عفويا وعلى سبيل المصادفة والاحتمال مطلقا •

(والله خلق كل دابة من ماء ، فمنهم من يمشي على بطنـه ومنهـم من يمشي على رجلين ومنهم من يمشي على أربع ، يخلق الله ما يشاء) •

(ومن الناس والدواب والأنعام مختلفٌ ألوانه) •

(وما من دابـةٍ فى الأرض ولا طائرٍ يطـير بجناحيه الاّ أُمـم امثالكم) •

(أوَ لم يروا الى الطير فوقهم صافاتٍ ويقبضْنَ ما يمسكهن الا الرحمن) •

وعالم الحيوان عالم كبير مملوء بالعجائب والغرائب ، وقد قدّر العلماء فصائل الحيوان بأكثر من مليوني فصيلة ، منها ما يعيش فى البر ومنها ما يعيش فى البحر ، ولكل من البر والبحر مجالاته المختلفة لسكنى الحيوانات المختلفة ، وقد اختلفت اجهزة هذه الحيوانات تبعاً لذلك اختلافا كبيرا لكي تتلاءم مع البيئة التي تعيش فيها ، والغذاء الذى يتوفّر لها •

والبحث فى ذلك كله لبيان دقائق خلقها وعجيب تصميمها وغرائب شؤونها خارج عن مجال الحديث وعن نطاق معرفتي العلمية • وفيما كتبه المختصون بهذا الموضوع غنىً وكفاية لمن أراد التوسع •

ونقتصر هنا فى هذا المجال على الاشارة الى مَثَلٍ واحد تضمنه قوله تعالى : (أفلا ينظرون الى الابلِ كيف خُلِقَتْ) حيث لخّصت هذه الآية الشريفة عجائب ما أودع الله عزّ وعلا فى هذا الحيوان الأليف الذى تكثر منّا مشاهدته دون الالتفات الى ما ضمّ بين جنبيه من دلائل القدرة والتصميم •

لقد خلق الله هذا الحيوان لتكون الصحراء ميدان عمله وعيشه ، ولذلك أوجده قادراً على اكتناز ما يكفيه من الطعام والشراب لمدة طويلة فى سنامه لكي يستطيع مجابهة جوع الصحراء وعطشها ، كما خُلِقَتْ له ـ لهذا الغرض ـ تلك الأهداب الطويلة التي تلتفُّ حول عينيه وهي أشبه ما تكون بالشبكة لتحمي عينيه من ذرات الرمال عند هبوب العواصف الرملية وليستطيع الرؤية ـ فى نفس الوقت ـ من خلال تلك الشبكة فلا يضطر الى اقفال بصره كما نفعل عند انتشار الغبار •

ولهذا الغرض ايضاً خلق الله له خُفّاً يقدره على المسير فى الرمل بلا غوص فيه ، وأنفاً يستطيع التحكم فى فتحته أثناء العواصف ليمنع دخول

الرمال فيه ، وشفةً مشقوقةً تساعده على أكل نباتات الصحراء التي غالباً ما تكون اشواكا •

وهكذا نرى فى دنيا الحيوان من العجائب والغرائب ـ وكلها شواهد الخلق والابداع والصنع المتقن ـ ما لا يمكن حصره بصفحات كهذه الصفحات ، وما ذاك الا (صنع الله الذى أتقن كل شيء خلقه) تعالى عما يقول الجاحدون علواً كبيراً •

★ ★ ★

كذلك اتجهت مجموعة أخرى من الآيات المباركة نحو البرهنة على وجود الله وايجاده من طريق الحثّ على التأمل فى دنيا النبات ، وانزال الماء من السماء ، وعجائب الأفلاك والسماوات والأرض ، حيث لا يمكن وجود كل ذلك وخضوعه لمثل هذه السنن والقوانين من تلقاء نفسه •

(أفرأيتم ما تحرثون • أأنتم تزرعونه أم نحن الزارعون ، لو نشاء لجعلناه حطاما) •

(أفرأيتم النار التي تورون • أأنتم أنشأتم شجرتها أم نحن المنشئون) •

(وهو الذى أنزل من السماء ماءاً فأخرجنا به نباتَ كل شيء فاخرجنا منه خَضِراً نخرج منه حَبّاً متراكبا ، ومن النخل طلعها قنوان دانية ، وجنات من اعناب ، والزيتون والرمان ، مشتبهاً وغير متشابه ، انظروا الى ثمره اذا أثمر وينعه ، انّ فى ذلكم لآياتٍ لقوم يؤمنون) •

(الذى جعل لكم الارضَ مهداً ، وسلك لكم فيها سبلاً ، وأنزل من السماء ماءاً فأخرجنا به أزواجاً من نباتٍ شتى) •

والنبات عالم قائم بذاته ، وتقرب فصائله من نصف مليون فصيلة ، وهي مختلفة فى التراكيب والتزاوج والأعمار الى أبعد الحدود • ومن

النبات ـ من ناحية العمر ـ ما يعمّر أياماً ، ومنه ما يعمر سنين ، ومنه ما يعمر أضعاف أضعاف عمر الانسان .

ولعل أول ما يلفت النظر فى النبات ان اكثره ينبت من بذرة تحمل جنيناً حياً يحتفظ بالحياة لمدة طويلة ، واذا استنبتت البذرة وخرج الجنين الحي كوّن له فى مطلع ولادته جذراً صغيراً يعدّه للغذاء فى المستقبل ، ويتغذّى فى اول عمره من الغذاء المدّخر فى البذرة حتى يستطيل عوده ويضرب فى الارض ليأكل منها بواسطة جذره ، شأنه فى ذلك شأن الجنين فى الانسان والحيوان يتغذّى من امه فى بطنها ، ثم من لبنها ، ثم يستقل عنها ويعتمد على نفسه فى غذائه ، فهل غير الله أودع فى البذرة الحياة ؟ .

اما الماء فهو فى طليعة المواد الضرورية التي لا يمكن الاستغناء عنها لسائر الكائنات الحية (وجعلنا من الماء كلّ شيء حي) فهو مصدر رئيس من مصادر الحياة ، وقد حثّ القرآن على التأمل فى هذا السائل العظيم وضرورته وأهميته :

(أفرأيتم الماء الذى تشربون . أأنتم أنزلتموه من المزن أم نحن المنزلون ، لو نشاء جعلناه أجاجاً فلولا تشكرون) .

ولقد أصبح بديهياً فى العصر الأخير ان البحار أساس الماء العذب ومصدره ، وماء البحر مالح لاتطيق أكثر الكائنات الحية الارضية استعماله ، وبالتالي لا يصلح للمحافظة على حياتها ، ولذلك هيّأ الله تعالى لعباده وسائر مخلوقاته عملية التصفية والتقطير بواسطة المطر ، وأصبح المطر هو الناقل لماء البحر من واقعه المالح الأول الى واقعه العذب الجديد .

وهكذا أنزل الله تعالى من السماء ماءاً (فأحيا به الأرضَ بعد موتها وبثّ فيها من كل دابة) ولو شاء لأبقاه اجاجاً مالحاً على حقيقته الاولى كما قال جل وعلا . هذا مع العلم بأن الملوحة ضرورية لماء البحر ضرورة العذوبة لنا ، لأن البحر وان كان من حيث العمق والسعة بالغاً حداً كبيراً

جداً ، ولكنه مع ذلك مغلق محدود ، وماؤه راكـد واقف ، ولو لم يكن مالحاً لتعفَّن وفسد على مرور السنين والاعوام .

والبحار آية من آيات الله الكبرى ، فهي تشغل ثلاثة ارباع سطح الارض ، وفيها من اصناف الكائنات الحية اكثر مما هو موجود على اليابسة وصدق الله العظيم حيث يقول :

(وهو الذى سخَّر البحر لتأكلوا منه لحماً طرياً وتستخرجوا منـه حليـــةً تلبسونها وترى الفلكَ مواخـــر فيه ولتبتغوا من فضـله ولعلكم تشكرون) .

ولو عدنا الى التأمل فى هذه السماء الزرقاء المحيطة بنا والى ما يسبح فيها من كرات وكواكب والى ما يتلألأ على صفحتها من نجوم واقمار . لو تأملنا فى ذلك لسيطر علينا العجب ولعاد الطرف خاسئاً وهو حسير ، ولهذا نجد القرآن يحثنا على النظر فى ذلك لنصل بسببه الى النتيجـة الخالدة ، وهي ان كل هذه العجائب لا يمكن أن توجدها صدفة متخبطة أو احتمال موهوم أو مادة عمياء .

(أو لم ينظـروا فى ملكوت السماوات والارض وما خلق اللهُ من شيء) (قل : انظروا ماذا فى السماوات والارض) (أفلم ينظروا الى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيَّناها وما لها من فروج) (سخّر الشمسَ والقمرَ كلٌ يجري لأجلٍ مسمى) (والسماء بنيناها بأيدٍ وانّا لموسعون) .

ان مجموعتنا النجمية تشمل مائة بليون نجمة تقريبا ، منها ما يمكن رؤيته بالعين المجردة ، ومنها ما لا يُرى الاّ بالمجاهر والأجهزة ، ومنهـا ما يحس العالم بوجوده دون أن يستطيع رؤيته .

ويقرر العلم ان سرعة الضوء هي (١٨٦) الف ميل فى الثانية ، ومن النجوم ما ترسل ضوءها فيصل الينا بسرعة ، ومنهـا ما يصل فى شهور ،

ومنها ما يصل فى سنين ، فكم بذلك يبلغ اتساع الكون .

فهل هذا كله حدث مصادفةً وبلا قصد وتدبير ؟ وهل هـــذا كله مستغنٍ عن الموجد ؟ وهل باستطاعة المادة العمياء الصماء ايجاد كل ذلك وتنظيمه بهذه الدقة ؟؟!

(هـذا خلق الله فأروني ماذا خلق الذين من دونه بل الظالمون فى ضلال مبين) .

★ ★ ★

ان هذه البراهين الحسية التي خاطب بها القرآن الكريم اولي الالباب ليثبت لهم فساد الصدفة ويرشدهم الى ضرورة وجود الخالق المدبر لهـذا الكون جامعة ـ كما رأينا ـ لسائر متطلبات الوضوح والاقناع والقدرة على تفتيت الشبهات والشكوك ، ولكن الايمان بهذا الخالق لن يتكامل بدون الايمان بوحدانيته وتنزيهه عن المثيل والشريك .

وقد تولّت آياتٌ كثيرة من القرآن بحث هذه المهمة الكبرى واعتبرتها جزءاً لا يتجزأ من الايمان بوجود الله تعالى ، واختصت احدى سور القرآن بالتأكيد على ذلك فسُمِّيت سورة التوحيد (بسم الله الرحمن الرحيم : قلْ هو الله أحد . اللهُ الصمد . لم يلدْ ولم يولدْ . ولم يكن له كفواً احد) ، ثم كانت كلمة « لا اله الا الله » شـعار الدعوة الاسلامية ورمز وحــدة المسلمين ، والخطوة الاولى نحو الاقرار بشريعة السماء الخالدة .

وليس الغرض من التعرض للتوحيد فى هذا المقام بحثه بالتفصيل ، لخروجه عن صلب الموضوع وسياق الحديث ، وانما الغرض من هــذا الاستطراد هو التعرف بمنهج القرآن فى البرهنة على هذه الحقيقة الأزلية الكبرى ، حيث استعرض كلّ فروضها واحتمالاتها الذهنية ثم انتهى الى حصرها فى فرض واحد لا يقر العقل غيره ، هو التوحيد المطلق الخالص من كل الشوائب ، وقد تضمنت ذلك بأجمعه آيةٌ واحدة هي قوله تعالى :

(لو كان فيهما آلهة ٌ اِلاّ الله لفسدتا) .

وفحوى هذه الآية الشريفة : انه لو افترضنا ـ وفرض المحال غير محال ـ وجودَ الهين مثلا ، فهل هما مضطران للاشتراك فى الخَلْق أو أنَّ كلاً منهما مستقل عن الآخر بما يريد فعله ، فانْ كان كل واحد منهما مضطراً للآخر بحيث لا يستطيع الانفراد بالتصرف فليسا بالهين ، لأن من أول صفات الاله أن لا يكون مضطراً لغيره ، وانْ كان كلٌ منهما مستقلاً بتصرفه فهل هما متفقان دوماً ام يختلفان فى بعض الأحيان ، فانْ كانا متفقين دائما فهل اتفاقهما ضروري أم اختياري ، فانْ كان ضرورياً كان كلُ منهما محتاجاً للآخر فلا يكونان الهين ، وان كان اتفاقهما اختياريا لزم اختلافهما فى بعض الحالات فانْ اختلفا وكان كلٌ منهما بقوة الآخر لزم اختلال الكون لانَّ كلاً منهما يريد ما لا يريد الآخر ، وانْ كانا ضعيفين سقطا عن مقام الالوهية ، اما اذا كان احدهما قوياً والآخر ضعيفاً كان القويُ هو الاله .

ويتلخص من هذه الفروض كلها أنه لا يمكن أن يوجد فى الكون ـ بحكم الحصر العقلي ـ غير اله واحد لا ثاني له ولا شريك ، وهو الحصر الذى عبَّرتْ عنه الآية الشريفة السالفة الذكر بتلك الألفاظ الموجزة وأطلق عليه علماء الكلام اسم « دليل التمانُع » .

واذا كان هذا البرهان القرآني قد أبطل بمنتهى الوضوح شبهات المشركين والفلاسفة القدماء القائلين بتعدد الآلهة فانَّ اِبطاله لأقوال اليهود القائلين بأن عزيراً ابنُ الله والنصارى القائلين بأن الله ثالث ثلاثةٍ أكثرُ دلالة ووضوحاً ، لأن أتباع هاتين الطائفتين يعترفون بأن عزيراً والمسيح وامَّه مخلوقون من قبل الله تعالى كما صرَّحوا بذلك فى توراتهم وانجيلهم ، وباعترافهم هذا تكون الحجة قائمةً عليهم ، لأنه لا يمكن فى العقل اشتراك الخالق والمخلوق فى الالوهية والربوبية (ان مَثَلَ عيسى عند الله كمثل

آدم خلقه من تراب) ، (واذ قال اللهُ يا عيسى بن مريم أأنت قلتَ للناس اتخذوني وأمي إلهين من دون الله ؟ ، قال سبحانك ما يكونُ لي أن أقول ما ليس لي بحقٍّ ، انْ كنتُ قلتُه فقد علمتَه ، تعلم ما في نفسي ولا أعلم ما في نفسك إنك أنت علاّم الغيوب) .

★ ★ ★

وكما اهتمَّ القرآن الكريم بالبرهنة على وجود الله تعالى ووحدانيته وسرد الأدلة التفصيلية على ذلك باعتباره الأصل الاول من اصول الاعتقاد وحجرَ الزاوية فى صرح نظام الاسلام ، أولى المعادَ ايضا مثل هـــذا الاهتمام وأقام لاثباته عدداً من البراهين والأدلة ، ليكون الانسان فى دنياه مخلصاً فى أداء واجباته أمينــاً فى تصرفاته بحكم شعوره بالرقابة الـكاملة والتسجيل الدقيق لكل حركاته وسكناته ، وبهذا يكون الاقرار بالمعاد متمماً للاقرار بالمبدأ ، بل لن يؤدي الايمان بالله دوره الأكمل في تنظيم الحيـاة ما لم يُشفع ذلك بالايمان بالمعاد .

ونورد فيما يلى نماذج من البرهنة القرآنية على اثبات هذا الاصل المهم من اصول الدين :

(يا أيها الناسُ انْ كنتم فى ريبٍ من البعث فانا خلقناكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة مخلَّقة وغير مخلَّقة) .

(أيحسب الانسانُ أن يترك سدى ! ألم يَكُ نطفةً من منيٍّ يُمنى ، ثم كان علقةً فخلق فسوّى ، فجعل منه الزوجين الذكر والانثى ، أليس ذلك بقادرٍ على أن يحي الموتى) .

(أيحسب الانسانُ أنْ لن نجمع عظامه ، بلى قادرين على أن نسوِّي بنانه) .

(أو لم ير الانسانُ أنّا خلقناه من نطفةٍ فاذا هو خصيم مبين وضرب

لنا مثلاً ونسي خَلْقَه قال من يحي العظامَ وهي رميم قل يحييها الذي أنشأها اول مرة وهو بكل خلق عليم) •

ان معنى المعاد كما نفهمه من القرآن الكريم هو جمع الأجزاء المتفرقة من كل ميت واعادتها الى ما كانت عليه في دار الدنيا من هيئة وصورة ، وليس معناه اعادة المعدوم كما تخيله بعض الفلاسفة فقال باستحالته • ويكفينا دلالةً على فهمنا هذا ما ضربه الله تعالى مَثَلاً لابراهيم عندما طلب من ربّه أن يريه كيف يحيي الموتى (قال : فَخُذْ أربعةً من الطير فصرهُنَّ اليك ثم اجعلْ على كل جبلٍ منهنَّ جزءا ثم ادعهن يأتينك سعياً) وقوله عز من قائل : (أيحسب الانسانُ أنْ لن نجمع عظامه) ، حيث أوضحت هاتان الآيتان انّ احياء الموتى يوم القيامة عبارة عن جمع سائر ما تفرّق من ذرات كل ميت وتوحيد ما تشتت من اجزائه ، وبذلك تنتفي شبهة الاستحالة انتفاءا تاما •

وعندما أراد القرآن البرهان على امكان ذلك ووقوعه أمر الانسان بالتفكير في كيفية خلقه : تراب ، نطفة من مني يمنى ، علقة ، مضغة ، انقسام الى ذكر وانثى من دون أن يكون في مظهر الخلية ما يدل على هذا الانقسام، انسان كامل بكل خلاياه وغرائزه وأعضائه وطبائعه ووراثته •

وحينما يؤمن الانسان بأن الله تعالى هو الخالق له من تراب يجد نفسه منساقاً مع عقله للايمان بأن من أوجده من تراب لن يعجزه جمع أجزائه المتفرقة من بين التراب ايضا ، لان القادر على ايجاد شيء قادر بالبديهة على تكرار الايجاد ، فمن استطاع ان يوجد جهازا كهربائيا معينا قادر على ايجاد مثله آلاف المرات • فالايمان بالقدرة الاولى أي كون الله تعالى هو الخالق للانسان يستتبعه ايمان مطلق بامكان تكرار هذه القدرة بايجادٍ آخر قائمٍ على جمع الأجزاء المتفرقة والذرات المتشتتة (أليس ذلك بقادر على أن يحيي الموتى) ؟ •

ونلاحظ من خلال تأملنا فى آيات المعاد السالفة الذكر ان القرآن قد أراد افهامنا بأن اعادة الآخرة ستكون مستوفية لكل خصائص الانسان ومحافظة على سائر ميزاته البدنية التى كان عليها فى الدنيا ، فقال عز من قائل : (بلى قادرين على أن نسوِّي بنانه) .

واختيار البنان للتمثيل لم يكن بدافع كونه احد اجزاء الانسان ، ولم يكن استشهادا عفويا بدون قصد ، وانما اختير هذا الجزء دون غيره لأنه ــ كما ثبت علميا ــ لايمكن أن يتماثل فيه اثنان من البشر ، بل حتى التوأمين الذين قد يتشابهان فى كل ملامحهما واعضائهما البارزة حتى يكون التميز بينهما صعباً جداً لايمكن أن يتشاكلا فى خطوط بنانهما أبداً ، ولذلك يعتبر التوقيع بالابهام أهم من التوقيع بالخط فى اثبات صحة الورقة الممضاة ، لأن الكتابة قد يدخلها التزوير والتقليد فيعسر معرفة الصدق من الكذب ، لكنَّ خطوط البنان لايمكن تزويرها مطلقا مهما أُوتي المزِّور من براعة الرسم والمحاكاة .

وهكذا تكون خلاصة الاستدلال على المعاد معتمدةً فى مرحلتها الاولى على الايمان بالخَلْق الاول ، ليكون الايمان بامكان العودة واضحاً كل الوضوح (قل يحييها الذي أنشأها اول مرة) .

★ ★ ★

وبعد : فهذه نماذج سقناها ليتضح لنا فى ضوئها « منهج البرهنة فى القرآن » وهو ــ كما أسلفنا ــ منهج فريد بين مناهج البرهان ، بما اعتمد عليه من مشاهد الحس وأحكام العقل ، وبما ألفت اليه الانظار والافكار من ادلة الصنعة وشواهد الآثار .

يراجع فى زيادة المعلومات وسـعة الاطلاع :

١ ـ مطارحات فلسفية ـ تأليف : نصيرالدين الطوسي •

٢ ـ شرح تجريد الاعتقاد ـ تأليف : العلامة الحلي •

٣ ـ الله ـ تاليف : عباس محمود العقاد •

٤ ـ الله والعلم الحديث ـ تأليف : عبدالرزاق نوفل •

٥ ـ الله يتجلى فى عصر العلم ـ تأليف : جماعة من الأساتذة الغربيين •

٦ ـ العلم يدعو الى الايمان ـ تأليف : موريسون •

٧ ـ مفاهيم اسلامية ـ الجزء الأول ـ تأليف : محمد حسن آل ياسين •

النسخ والبداء في القرآن

أرسل الله تعالى نبينا محمداً ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ الى الناس كافة (شاهداً ومبشّراً ونذيراً وداعياً الى الله باذنه وسراجاً منيرا) ، وفضّله على سائر المرسلين بكونه (رسول الله وخاتم النبيين) وبكون رسالته الكبرى خاتمة الرسالات والشرائع السماوية ، الباقية ما بقيت السماوات والارض •

وكان من أبرز ميزات رسالة الاسلام أنها رسالة عالمية شاملة ، لم تختص بقوم دون قوم ، ولا برقعة من الارض دون اخرى ، ولا بامة دون سائر الامم ، ولا بزمن دون غيره من الازمان • قال تعالى : (وما أرسلناك الّا كافةً للناس) (وما أرسلناك الّا رحمةً للعالمين) (لأُنذركم به ومَنْ بلغ) (يا أيها الناس انّي رسول الله اليكم جميعا) حيث نصّت هذه الايات بما لايقبل المناقشة والتأويل على أن رسالة محمد ـ ص ـ موجهة الى الناس جميعا ، مَنْ كان منهم حين البعثة ومَنْ سيكون بعدها ، ومن كان في جزيرة العرب او خارجها • وتلك ميزة كبرى لم يؤتَها الأنبياء السابقون ولم يُكَرَّم بمثلها الرسل الأولون ، حيث كان كل واحد منهم مرسلاً لمجموعةٍ معينة من الناس وطائفة مخصوصة من البشر • قال تعالى : (لقد أرسلنا نوحا الى قومه) (والى ثمود اخاهم صالحا) (ولقد أرسلنا موسى بآياتنا وسلطانٍ مبين الى فرعون وملائه) (واذ قال عيسى بن مريم يابني اسرائيل اني رسول الله اليكم) •

ولما كانت رسالة الاسلام خاتمة الرسالات ـ كما أسلفنا ـ ؛ وكانت هي الشريعة الباقية الخالدة الى آخر ايام الدنيا كان لابد لها بحكم تأخرها الزمني أن تنسخ احكام الرسالات السابقة عليها ، لعدم امكان الجمع بين

شريعتين تختلفان فى كثير من الأحكام وتتعارضان فى مفردات التكاليف ، وهذا ما يرشدنا اليه دليل العقل وانسياق الفطرة وحكم البداهة كما هو واضح •

وحاول اليهود ــ ابقاءاً على شرعية رسالتهم واستمرارها ــ أن ينفوا امكان النسخ ، بزعم أن القول به مساوق للقول بجهل الله تعالى وعدم حكمته • وكان دليل شبهتهم هذه : ان تشريع الحكم من الله عزوجل لابد أن يكون على طبق مصلحة تقتضيه ، لأن الحكم بلا مصلحة ضرب من ضروب العبث ، وذلك ما يتنافى مع حكمة الحكيم المطلق • وعلى هذا يكون رفع الحكم الثابت ذي المصلحة منافياً للحكمة ، لأن فى رفعه تفويتاً لتلك المصلحة على العباد ، الا أن يكون قد اتضح للمشرّع بعد التشريع ان الحكم بلا مصلحة ، فيرفعه ، وهذا معناه نسبة الجهل الى الله اذ شرع شيئاً كان يعتقد فيه المصلحة ثم ظهر خلافه • ولما كان نتيجة القول بالنسخ هو عدم حكمة الناسخ او جهله بوجه الحكمة ــ وكلاهما مستحيل فى حقه تعالى ــ كان النسخ مستحيل الوقوع •

وخلاصة الرد على هذه الشبهة : ان الاحكام الشرعية منوطة ومرتبطة بالمصالح ، والمصالح كثيرا ما تتغير بتغيُّر العصور وتختلف باختلاف اجيال المكلفين ، وربما كان فى الحكم المعين مصلحةٌ لقومٍ فى زمان مّا فأُمربه ، ثم كان الحكم نفسه بلا مصلحة لقوم آخرين او فى زمن ثان فنُهي عنه •

هذا • مضافاً الى أن العقل البشرى فى تطور مستمر ، والشرائع السماوية ــ كما نعلم ــ قد تدرّجت فى مسايرة هذا العقل على حسب تدرُّجه فى النمو والتطور ، شأنها فى ذلك شأن المعلومات التي نزوّد بها الطفل على ضوء قابلياته الذهنية والعقلية ، ثم نتدرج فيها شيئاً فشيئاً حتى نصل بها عند تمام نضجه الذهني الى أعقد النظريات والأفكار •

وهكذا الحال فى الشرائع السماوية التى جاءت فى كل زمن ولكل

قوم بما يلائم مصالح الزمن والقوم ويتمشى مع درجة النضج الفكرى لذلك العصر وأهله ، حتى بلغت ذروتها في الشريعة الاسلامية التى اختارها الله لتكون شريعة الانسان وهو فى أوج تقدمه الحضارى ونموه العقلي ، وليس معنى ذلك هو الجهل بالمصلحة او انكشاف شيىء لم يكن معلوما من قبل .

ثم ان التوراة قد حملت شواهد كثيرة على وقوع النسخ ، كاباحة الجمع بين الاختين فى شريعة آدم وتحريم ذلك فى شريعة موسى ، وكاباحة تأخير الختان الى وقت الكبر فى شرع نوح وتحريمه فى شرع موسى ، وهكذا .

واذن . فلا يصح القول باستحالة النسخ وليس له من دليل ، وان ما زعمه اليهود فى ذلك مردود بشهادة التوراة بعد شهادة العقل .

★ ★ ★

ان معنى النسخ فى اللغة : ابطال الشيىء واقامة آخر مقامه ، تقول العرب : « نَسَخَت الشمسُ الظلَّ وانتسخته : أزالته ، والمعنى : أذهبت الظل وحلَّت محله[1] » ، ومنه نسخ الكتاب أي « اكتتابك كتاباً عن كتابٍ حرفاً بحرف »[2] وتناسخ الورثة أي « أن تموت ورثة بعد ورثة وأصل الميراث قائم لم يقسَّم ، وكذلك تناسخ الازمنة من القرون الماضية . واصل الباب : الابدال من الشيىء غيره »[3] ، وبذلك يكون « النسخ والبدل والخلف نظائر »[4] .

وقد اتفق المسلمون على وقوع النسخ فى الشريعة الاسلامية ، حيث نسخت هذه الشريعة كثيراً من احكام الشرايع السابقة ، كما ان بعض احكام الشريعة الاسلامية قد نسخ باحكام اخرى من هذه الشريعة نفسها ، وليس في ذلك أي غرابة أو عجب بعد أن كان سبيل النسخ « سبيل سائر ما تعبَّد الله تعالى به وشرعه على حسب ما يعلم من المصلحة فيه ، فاذا زال الوقت

الذى تكون المصلحة مقرونة به زال بزواله ، وذلك مشروط بما فى المعلوم من المصلحة به » (٥)

ولقد درج المفسرون والباحثون الاسلاميون على تقسيم النسخ فى القرآن الى ثلاثة اقسام :

القسم الاول : نسخ التلاوة والحكم

بمعنى أن الآية غير مثبتة فى المصحف وأن الحكم الشرعى الذى تضمنته قد رُفِع معها .

ومثّلوا لذلك بماروته عمرة عن عائشة انها قالت : كان فيما أُنزل من القرآن : « عشر رضعات معلومات يُحَرِّمْنَ » ، ثم نُسِخن : «بخمس معلومات» فتوفي رسول الله صلى الله عليه وسلم وهُنَّ فيما يُقرأ من القرآن»(٦) .

وهذا القسم من النسخ لانصححه ولا نقرُّ به ، لأن الخبر خبر واحد، وقد أجمع المسلمون على عدم صحة نسخ القرآن بخبر الواحد(٧) . مضافا الى أن هذه الرواية تشعر بنقص القرآن ، ونحن لا نقول بنقصه كما سيأتي. وكيف سمعت السيدة عائشة هذه الآية المنزلة ولم يسمعها أي فرد آخر من الصحابة وفيهم شيوخ المهاجرين والانصار ؟! وكيف غابت عن الخليفة عثمان وغيره من جُمّاع القرآن وحفّاظه وقرائه فلم يروها راوٍ ولم يقرأها قاريء؟!! .

القسم الثانى : نسخ التلاوة دون الحكم

بمعنى أن الآية غير مثبتة فى المصحف ، ولكن حكمها باقٍ نافذ .

ومثّلوا لذلك بما رُوِي عن الخليفة عمر بن الخطاب من قوله : كنا نقرأ : « لا ترغبوا الرغبة فيهما » بمعنى الاعراض عن آبائكم ، ومن ذلك : « الشيخ والشيخة اذا زنيا فارجموهما البتة نكالاً من الله ، والله عزيز حكيم » (٨) .

وفي نص آخر عن الخليفة عمر قوله : « لولا أكره أن يقول الناس قد زاد فى القرآن ما ليس فيه لكتبت آية الرجم وأثبتُّها ، فوالله لقد قرأناها على رسول الله ـ ص ـ ... الخ [٩] .

وهذا القسم كسابقه لانصححه ولا نقول به ، لانه اخبار احاد لايصح العمل بها وبخاصة فى القرآن الذي تواترت آياته لدى المسلمين ، بل ان قبول هذا الحديث وامثاله اقرار بالقول بنقص القرآن ، وذلك ما لانقول به كما سيأتي .

ولقد شاركنا العلامة ابن ظفر فى رفض هذه الرواية وما كان على شاكلتها وأنكر أن يُعَدَّ هذا مما نسخت تلاوته لان خبر الواحد لا يثبت القرآن[١٠] .

وكان الواجب على الخليفة ـ بعد أن أقسم اليمين على قراءة هذه الآية على رسول الله ـص ـ أن يأمر الناس بقراءتها واثباتها فى مصاحفهم ، « لأن مقالة الناس لا تصح مانعاً » على حد تعبير السيوطي[١١] .

وحسبنا دليلا على رفض كل ذلك أنه ينافي صريح قوله تعالى : (إنّا نحن نزّلنا الذكر وانّا له لحافظون) الذي دلّ على المحافظة على الذكر ، وواضح أن نسخ التلاوة ـ مع نسخ الحكم او بدونه ـ معناه النقص وهو منافٍ للحفاظ عليه كما هو جلي .

ثم ان ذلك مردود ايضا بما يرجح لدينا من ضرورة أن يكون الناسخ للقرآن قرآنا ايضا ولانجيز نسخ القرآن بالسنة كما سيأتى تفصيله .

القسم الثالث ـ نسخ الحكم دون التلاوة

بمعنى أن الآية مثبتة فى القرآن الكريم ، ولكن الحكم الذى تضمنته قد نُسِخ .

وهذا هو النسخ الذي نقول بامكان وقوعه ، وقد وقع بالفعل ، وأورد

العلماء المسلمون نماذج منه في مؤلفاتهم وخصَّه بعضهم بتآليف منفردة .
يقول الشيخ المفيد :

« النسخ عندي في القرآن انما هو نسخ متضمنه من الأحكام وليس هو رفع اعيان المنزل منه ..... ومن المنسوخ في القرآن قوله تعالى : (والذين يتوفون منكم ويذرون ازواجا وصيةً لأزواجهم متاعاً الى الحول غير اخراج) ، وكانت العدة بالوفاة بحكم هذه الآية حولاً ، ثم نسخها قوله تعالى : (والذين يُتَوَفَّوْنَ منكم ويذرون أزواجاً يتربَّصْنَ بأنفسهن اربعة اشهر وعشرا) . واستقر هذا الحكم باستقرار شريعة الاسلام ، وكان الحكم الاول منسوخاً والآية به ثابتة غير منسوخة ، وهي قائمة في التلاوة كناسخها بلا اختلاف . وهذا مذهب الشيعة »(١٢) .

ويقول ابن حزم :

« ان المعروف من النسخ في القرآن هو ابطال الحكم مع اثبات الخط »(١٣) .

وبهذا المعنى فسَّر عبدالله بن مسعود ومجاهد قوله تعالى : (ما نَنْسَخْ من آية) ، حيث صرَّحا بأن معنى نسخ الآية هو اثبات خطها وتبديل حكمها(١٤) .

وقد اختلف العلماء المسلمون ـ بعد القول بوقوع النسخ ـ في تعيين الناسخ ، فذهب فريق منهم الى اشتراط كون الناسخ قرآنا ، وأجاز آخرون « نسخ الكتاب بالسنة المتواترة »(١٥) .

واذا كان لي أن ارجح احد الرأيين ـ من دون الدخول في التفاصيل ـ فاني ارجح القول بأن نسخ الحكم القرآني لا يكون الاّ بالقرآن فقط ؛ دون السنة والاجماع .

واستدل الشيخ المفيد على منع نسخ السنة للقرآن بقوله تعالى :

(ما ننسخ من آيــةٍ أو نُنْسِـها نأتِ بخيرٍ منهـا أو مثلها) ، وقـال : « ليس يصح أن يماثل كتابَ الله تعالى غيرُه ، ولا يكون في كلام أحدٍ من خلقـه خيرٌ منـه ... والقول بأن السنة لا تنسـخ القرآن مذهب أكثر الشيعة »[16] .

واشترط ابن حزم في النسخ القرآني : « أن تكون الآية الناسخـة والمنسوخة ثابتتين في التلاوة الا انّ المنسوخة لا يُعْمَل بهـا ، مثل عـدة المتوفى عنها زوجها »[17] .

« والنسخ يصح دخوله في الأمر والنهي ـ بلا خلاف ـ ، والخبر إنْ تناول ما يصح تغييره عن صفته جاز دخول النسخ فيه لأنـه في معنى الأمر . ألا ترى أن قوله : (ولله على الناس حجُ البيت) خَبَرٌ ، وقوله : (والمطلقات يتربَّصنَ بأنفسهن) أيضاً خَبَر ، وكذلك قوله : (ومَنْ دخله كان آمناً) خبر ، ومع ذلك يصح دخول النسخ فيه . فأما ما لا يصح تغييره عن صفته فلا يصح دخول النسخ فيه نحو الاخبار عن صفـات الله تعـالى وصفـات الاجنـاس ، فلمّـا لم يصح عليـه التغيير لم يصح فيـه النسخ »[18] .

وقد تجوَّز مَنْ تجوَّز فسمى الاستثناء والتخصيص نسخاً ، وهو ـ في الحقيقة ـ ليس بنسخ[19] ، وقد نشأ هذا التجوُّز من قلة التدبُّر أو التسامح في اطلاق لفظ النسخ على مثل ذلك ، وبلغ الأمر بابن سلامة الى حدِّ قوله : « وأما ما نُسِخ حكمه وبقي خطه فهو في ثلاث وستـين سورة »[20] .

وحسبنا أن نقف على ما ادعاه ابن عربي من أنَّ قوله تعالى : (فاقتلوا المشركين) قد نسخ مائة وأربعاً وعشرين آية[21] ، لنعرف مدى التجوز والتسامح الذي انساق اليه أمثال هذا الرجل .

ومن طرائف ما يُروى في هذا الصدد أنَّ هبة الله بن سلامة قد عَدَّ (وأسيراً) في قوله تعالى : (ويطعمون الطعام على حبه مسكيناً ويتيماً وأسيرا) من المنسوخ وأثبت ذلك في كتابه ، ثم « قُرِىء عليه الكتاب وابنته تسمع ، فلما انتهى الى هذا الموضع قالت له : أخطأتَ يا أبت ، قال : وكيف ، قالت : أجمع المسلمون على أن الاسير يُطْعَم ولا يقتل جوعاً ، فقال : صدقتِ »[٢٢] .

وخلاصة القول : ان النسخ الحقيقي قليل جدا بل أقل القليل ، وان أكثر ما ادُّعي نسخه لا يقوى على الثبوت أمام النظرة الموضوعية الفاحصة ، وقد بحث استاذنا الامام الخوئي ستاًوثلاثين آية قيل انها منسوخة فلم يبق منها بعد المناقشة والتفنيد الا آية واحدة ثبت نسخها هى آية النجوى[٢٣] . كما قام السيوطي ببعض الغربلة لمزاعم النسخ فصح لديه نسخ عشرين آية فقط وقال بأنه : « لا يصح دعوى النسخ فى غيرها »[٢٤] .

(١) لسان العرب : ٣/٦١

(٢) نفس المصدر : ٣/٦١

(٣) التبيان : ١/٣٩٣

(٤) نفس المصدر : ١/٣٩٣

(٥) التبيان : ١/٣٩٤

(٦) صحيح مسلم : ٤/١٦٧ والاتقان : ٢/٣٥

(٧) الاتقان : ٢/٤٣ ومعالم الاصول : ٢١٨

(٨) الناسخ والمنسوخ لابن حزم : ٣١٤

(٩) الناسخ والمنسوخ لابن سلامة : ٦ ويراجع تفسير ابن كثير : ١/١٤٩ .

(١٠) الاتقان : ٢/٤٣

(١١) الاتقان : ٢/٤٣

(١٢) اوائل المقالات : ١٠١

(١٣) الناسخ والمنسوخ : ٣١١

(١٤) تفسير الطبرى : ١/٤٧٥

(١٥) معالم الاصول : ٢١٨

(١٦) اوائل المقالات : ١٠٢

(١٧) الناسخ والمنسوخ : ٣١١ ويراجع الاتقان : ٢/٣٤

(١٨) التبيان : ١/١٢ ويراجع الناسخ والمنسوخ لابن سلامة : ٨ ـ ٩ والاتقان : ٢/٣٤ .

(١٩) الناسخ والمنسوخ لابن حزم : ٣١٣ وتفسير الطبرى : ١/٤٧٥

(٢٠) الناسخ والمنسوخ : ٦

(٢١) الاتقان : ٢/٣٩

(٢٢) نفس المصدر والصفحة

(٢٣) البيان : ١/١٩٧ ـ ٢٦٩

(٢٤) الاتقان : ٢/٣٧ ـ ٣٨

انتهينا فيما سلف من الحديث عن امكان النسخ ووقوعه الى نتيجةٍ ثابتة لا تقبل التردد ؛ هي موضع اتفاق المسلمين على اختلاف مذاهبهم وطوائفهم وآرائهم الاجتهادية .

ولابدَّ لنا – اتماماً للبحث واستعراضاً لكل جوانبه – أن نقف متمهلين أمام مفهوم كلامي شديد الشبه بالنسخ وقريب منه في المعنى والأثر يُطلق عليه اسم « البداء » .

وعلى الرغم من رفض كثيرٍ من علماء المسلمين – من غير الشيعة الامامية – للقول بالبداء فاننا لم نجد لهذا الرفض أي مبرر أو دليل ؛ بعد قولهم بصحة النسخ وامكانه ووقوعه ، لأن الأساس العلمي والفلسفي لكلا المفهومين واحد وان اختلفا في موارد الوقوع ، حيث يكون مجال النسخ هو الجانب التشريعي إذ يُرْفَع به حكمٌ ويحل حكم آخر محله ، أما مجال البداء فهو الجانب التكويني حيث يُمَدُّ في أجل مَنْ كُتب عليه الموت أو يقصَّر عمر من كتب له البقاء ، لسبب من الأسباب .

لقد قالت الشيعة الامامية بالبداء خضوعاً لأدلةٍ سمعية كثيرة نصت عليه ؛ وانسياقاً مع رضى عقلي كامل بامكان ذلك وعدم ترتُّب اللوازم الباطلة على القول به .

وقد أبى كثير من علماء المسلمين – من غير الشيعة – أن يقولوا بصحة البداء لما يستلزم القول به – في نظرهم – من نسبة الجهل الى الله تعالى ، وذلك هو الكفر بعينه .

وعلى الرغم من دوران الأمر لدى الجانبين بين الايمان والكفر فان

الطرفين على حق فيما ذهبوا اليه •

لقد فسَّر الشيعة الامامية البداء بأنه تعبير آخر عن فكرة « المحو والاثبات » التي جاء بها القرآن ، فقالوا به •

ولقد فسر غير الشيعة البداء بأنه « استصواب شيىء عُلِمَ بعد أن لم يُعْلَم »[١] فنفوه وذهبوا الى كفر من يقول به •

وكلا القولين حق وصواب •

ولكن الشيء الذي يبعث على الأسف والألم أن يكفر بعض المسلمين بعضاً قبل التعمق والاطلاع الكامل ، وأن يبلغ الأمر بشيخ المفسرين الفخر الرازي الى مثل قوله : «قالت الرافضة : البداء جائز على الله تعالى ، وهو أن يعتقد شيئا ثم يظهر له أنَّ الأمر بخلاف ما اعتقده »[٢] ، فنسب الشيعة الى الكفر جهلاً منه بمقالتهم ، وهذه احدى المصائب الكبرى التي ابتلي بها المسلمون في تاريخهم الطويل •

وسيتضح لنا بعد البحث أنَّ النزاع لفظي بحت لا يمت الى جوهر الموضوع بصلة ، وأن كل المسلمين متفقون على أن البداء بمعناه الشيعي صحيح وواقع وان البداء بمعناه السني كفر بالله ، وان الخلاف بأجمعه ناتج من سوء الفهم أو سوء القصد وقانا الله ذلك •

★ ★ ★

البداء في اللغة هو الظهور « بدا الشيءُ يبدو بَدْواً وبُدُوّاً وبداءا وبَداً ــ الأخيرة عن سيبويه ــ : ظهر •••• وبدا لي بَداءٌ أي تغير رأيي على ما كان عليه ••••• وبدا له في الأمر بَدْواً وبَداً وبَداءاً » •[٣]

فيكون المقصود ببداء الانسان ــ اذن ــ أن يرى رأياً في أمرٍ مّا أو يعزم على انجاز عمل معين ثم يبدو له ويظهر مما خفي عنه بادىء بدء ما يبدل لديه ذلك الرأي أو يصرفه عن انجاز ذلك العمل ، فيكون هذا البداء ظهور ما لم يكن يُعْلَم •

والبداء بهذا المعنى مستحيل على اللّه تعالى ، لأنه ناشيء عن جهل ونقص وقصور ، وذلك محال عليه ولا يقول به مؤمن •

وفي حديث منصور بن حازم عن الامام جعفر بن محمد الصادق ـ ع ـ قال : سألتُ أبا عبدالله (ع) : هل يكون اليوم شيء لم يكن في علم الله بالامس ؟ ، قال (ع) : لا ، مَنْ قال هذا فأخزاه الله • قلت : أرأيتَ ما كان وما هو كائن الى يوم القيامة أليس في علم الله ؟ ، قال (ع) : بلى قبل أن يخلق الخلق »(٤) •

ومثله الحديث الآخر عن الامام الصادق (ع) قال : « مَنْ زعم أنّ الله عزوجل يبدو له في شيء لم يعلمه أمس فابرأوا منه » •(٥)

وهكذا يكون علم الله تعالى منزّهاً عن التغيير المستند الى الجهل بالشيء ثم ظهوره بعد ذلك •

★ ★ ★

ان المقصود بـ « البداء الالهي » عند الشيعة الامامية أن يظهر لله من المشيئة ما كان علمه مخفياً عن الناس ، مثل قولنا : برز فلان الى الميدان فبدا له من الشجاعة ما لم يكن معلوماً عند الناس ، ووقف فلان أمام منصة الخطابة فظهر له من البراعة أو المقدرة ما كان مجهولاً لدى المستمعين • وهذا هو البداء الذي نقول بصحته ، وبه يُفَسَّر ما جاء في أخبار أهل البيت عليهم السلام •

روى عمرو بن عثمان الجهني عن الامام الصادق (ع) قوله : « ان الله لم يَبْدُ له من جهل » •(٦)

وحدّث عبدالله بن سنان عن الامام الصادق (ع) أيضا أنه قال : « ما بدا لله في شيء الاّ كان في علمه قبل أن يبدو له »(٧) •

واذا لم يكن البداء ناشئاً عن جهل كما هو صريح هذه الروايات فلابد

أن يكون المقصود به أن يظهر لله من الأمر ما كان غير مترقب أو لم يكن في الحسبان وقوعه (وبدا لهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون) ، لا أن يظهر لله تعالى ما كان مجهولاً عنده ، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً •

والفهم العقلي لهذا المعنى قائم على أساس أنَّ الله تعالى لما خلق الكون بكل ما فيه ومن فيه جعل لذلك كله نظاماً رتيباً ثابتاً مستنداً الى قانون السبب والمسبَّب •

لقد خلق الله السبب وجعل مسبَّبه مرتبطاً به ، ولكنه تعالى لم ينفصل عن عملية السبب والمسبب ، بل جعل بيده استمرار الأسباب والمسببات في وجودها وبقائها وعملها وتأثيرها ، وله أن يعدم السبب أو يبطل تأثيره أو يمنع تأثيره بسببٍ آخر ، كما أنَّ له أن يعدم سبباً معيناً ويقيم غيره مقامه •

وهذا كله مسلَّم غاية التسليم بعد الاقرار بالله تعالى وقدرته وخلقه وهيمنته ، بل هو من نتائج الايمان المطلق بالله عزوجل •

وحسبنا في الدليل على صحة ذلك قوله تعالى : (يمحو الله ما يشاء ويثبت وعنده أُمُّ الكتاب) •

ولفظ المحو انما يصح اطلاقه اذا كان محواً لما له شيء من الثبوت بما يظهر من تقدير الأسباب وآثارها وسيرها في عملها • روى هشام بن سالم وحفص بن البختري وغيرهما عن الصادق (ع) أنه قال في هذه الآية (يمحو الله ما يشاء ويثبت) : وهل يُمحى الاّ ما كان ثابتاً ؟ وهل يثبت الاّ ما لم يكن ؟ »(٨) •

ومهما اختلف المفسِّرون في تفسير المحو والاثبات ومهما تعددت أقوالهم في ذلك : من كونه الناسخ والمنسوخ ، او أنه عامٌّ في كل شيء من رزق وأجل وسعادة ، أو أنه في مثل المحن والارزاء والمصائب يثبتها ثم يمحوها بالدعاء والصدقة ، أو أنه محو بالتوبة لجميع الذنوب واثبات

الحسنات بدلها ، أو غير ذلك من الاقوال ،[٩] فانها في خلاصتها وعلى اختلاف مضامينها تنص على وجود محوٍ واثبات .

وهناك آيات قرآنية اخرى تؤيد ذلك وتؤكده مثل قوله تعالى : (ثم بدّلنا مكان السيئة الحسنة) أي رفعنا السيئة ووضعنا الحسنة مكانها ؛ وقوله تعالى : (عسى ربنا أن يبدلنا خيراً منها) لما تابوا ورجعوا الى الله .

والتبديل المذكور في هاتين الآيتين وما كان على شاكلتهما لا يمكن أن يتحقق الاّ بمحوٍ واثبات ، كما هو سياق الآية حيث تمحى السيئة وتثبت الحسنة مكانها .

وهذا المحو والاثبات هو الذي أطلقت عليه الشيعة الامامية اسم « البداء » لتكرر هذا اللفظ في كثير من النصوص الصحيحة المعتمدة .

★ ★ ★

انّ القضاء الالهي ـ كما ترشدنا اليه مجموعة الآيات الشريفة والأحاديث الصحيحة المبينة له ـ على ثلاثة أقسام :

الاول ـ قضاء الله الذي لم يطلع عليه أحداً من خلقه ، ونعني به العلم المخزون الذي استأثر به في علم الغيب لنفسه ، وهو ما أطلق عليه القرآن الكريم اسم (ام الكتاب) . وهذا العلم لا يمكن أن يقع فيه أي معنى من معاني المحو والاثبات ، بل يتضمن فيما يتضمن علم ما سيقع فيه المحو والاثبات ، أي فيه ـ مثلا ـ عِلْمُ كونِ زيدٍ من أهل الجنة ، مع أن مقتضى الأسباب الاولى في أفعاله وأعماله أن يكون من أهل النار ويكتَب كذلك ما دام فاعلاً لموجبات العقاب ، وأنه سيتوب بعد ذلك فيمحى سائر ما كُتِب عليه من معاصٍ وذنوب ويثبت في سجل المنعّمين . فأُمُّ الكتاب قد حوت كل هذه التفاصيل بما فيها النتيجة التي سيؤول اليها أمر هذا الرجل بتوبته .

وبهذا يظهر أن البداء لا يقع في هذا القسم من القضاء ، ولكن ينشأ منه البداء . قال الامام الصادق (ع) فيما حدَّث بـه أبو بصير : « انَّ لله علمين : علم مكتوب مخزون لا يعلمه الاّ هو ، من ذلك يكون البداء ، وعلم علَّمه ملائكته ورسله وأنبياءه ونحن نعلمه » .(١٠)

الثاني ـ قضاء الله تعالى الذي أخبر أنبياءه ورسله وملائكته به وبحتمية وقوعه ، وهذا لا يكون فيه بداء أبداً ولا يطرأ عليه محو أو اثبات ، لأن وقوع المحو والاثبات فيه بعد اخبار الانبياء به يستلزم عدم وثوق الناس برسل الله وأخبارهم ، لما يظهر للناس من كذبهم على الله ، حيث يخبرون بقضائه المبلغ اليهم ثم يكون الواقع الخارجي على خلاف ذلك بعد المحو والاثبات ، فينتقض الغرض من بعثهم وارسالهم . روى الفضيل بن يسار عن الامام الباقر محمد بن علي (ع) انه قال : « العلم علمان : فعلم عند الله مخزون لم يطلع عليه أحداً من خلقه ، وعلم علَّمه ملائكته ورسله ، فما علَّمه ملائكته ورسله فانه سيكون ، لا يكذب نفسه ولا ملائكته ولا رسله ، وعلم عنده مخزون يقدم منه ما يشاء ويؤخر منه ما يشاء ويثبت ما يشاء »(١١) .

الثالث ـ قضاء الله الموقوف ، وهذا هو محل البداء والمحو والاثبات . سأل حمران الامام الباقر (ع) عن قول الله عزوجل : (قضى أجَلاً وأجلٌ مسمىً عنده) قال : « هما أجلان : أجل محتوم وأجل موقوف »(١٢) .

وحدَّث الفضيل قال : سمعت أبا جعفر الباقر ـ ع ـ يقول : « من الامور ؛ امور محتومة جائية لا محالة ، ومن الامور امور موقوفة عند الله يقدم منها ما يشاء ويمحو ما يشاء ويثبت منها ما يشاء »(١٣) .

وهكذا يتجلى أنَّ القضاء الالهي الحتمي المعبَّر عنه بـ (ام الكتاب) لا يمكن أن يقع فيه بداء ، وكيف يقع فيه ذلك وهو سبحانه عالم بكل

شيء منذ الأزل ، ولا يعزب عن علمه مثقال ذرة في الأرض ولا السماء •

وانما يقع البداء في خصوص القضاء الموقوف المعرَّض للمحو والاثبات • والقول بوقوع البداء فيه لا يستلزم نسبة الجهل الى الله سبحانه ، بل هو اعتراف بأن الكون بكل ما فيه ومَنْ فيه خاضع له وواقع تحت سلطانه وقوته وقدرته ؛ في حدوثه واستمرار بقائه • وان الواجب على العبد أن ينقطع الى الله ويتضرع اليه باخلاص في كل حاجاته ومهماته ، ليزيد له في الخير ويمحو عنه الشقاء ، وان انكار البداء ؛ والاعتقاد بأنَّ ما جرى به القلم كائن على كل حال مما يبعد العبد عن الدعاء والالتجاء والابتهال ، وهذا مخالف لما جاء به القرآن وحدَّث به النبي – ص – من حث العبد على الدعاء خوفاً وطمعاً ومن التوبة التى تمحو السيئات ومن النهي عن اليأس والقنوط من رحمة الله •(١٤)

ومن هنا يتضح معنى ما جاء في الأحاديث من أنه « ما عُظِّم الله بمثل البداء »(١٥) ، حيث يكون الاقرار بالبداء طريقاً الى اتصال العبد بربه والى التوكل عليه والانقطاع اليه والتوسل به في قضاء الحاجة وتيسير العسير ، مما لا يتحصل ذلك لولا الاقرار بالبداء •

ويجدر بنا – بعد استعراض كل ما سلف – أن ننبِّه على أن البداء هنا قد استُعْمِل بمعنى الابداء ، وان هذا الاستعمال مبني على التنزيل والاطلاق بعلاقة المشاكلة ، ولم ينفرد أهل البيت باستعمال هذا اللفظ بهذا المعنى ، بل استعمله النبي – ص – كذلك أيضاً فيما أخرجه البخاري عنه في نص طويل جاء في أوله : « ان ثلاثة في بني اسرائيل أبرص وأقرع وأعمى بدا لله أن يبتليهم ••• الخ »(١٦) •

وليس غريباً أن يستعمل اللفظ في غير معناه الحقيقي الذي وضع له ، وقد وقع نظير ذلك في البناء على التنزيل والمجاز في استعمالات قرآنية كثيرة ،

كقوله تعالى : (الآن خفَّف الله عنكم وعلم أنَّ فيكم ضعفا) وقوله تعالى : (لنعلم أي الحزبين أحصى لما لبثوا أمدا) ، وليس من المعقول أن يكون هذا العلم الالهي مسبوقا بالجهل ، بل لم يقصد بذلك الا معنى ظَهَرَ ويظهر .

* * *

وهكذا يتجلى لنا بكل وضوح صواب ما قلناه في صدر البحث من أنَّ النزاع لفظي بحت لا علاقة له بصميم الموضوع وان الاساس متفق عليه ولا اختلاف فيه .

وقد اطلع أخيراً أحد أساتذة جامعة القاهرة على توضيح الشيعة الامامية للبداء فأُعجب « بوجاهة قولهم بالبداء وما في تفكيرهم من عمق في الحكم به ، لأن معناه ان الله سبحانه يطوِّر خلقه وفق مقتضيات البيئة والزمان اللذين خلقهما وأودع فيهما سرَّ التأثير على خلقه ولو ظاهرا » .

ثم يقول :

« ان البداء الذي يقول به الامامية هو قضية الحكم على ظاهر الفعل الالهي في مخلوقاته بما تتطلبه حكمته ، فهو قول بالظاهر المتراءي لنا ، واذن فوجه الاشكال فى الذين خطَّأوا الشيعة في قولهم بالبداء انما جاء من زعمهم أن الشيعة ينسبون البداء الى علم الله القديم »(١٧) .

ولعل من خير ما نختتم به هذا البحث أن نسجل نص ما كتبه شيخ الامامية محمد بن محمد بن النعمان المفيد المتوفى سنة ٤١٣هـ في هذا الموضوع لما فيه من سلامة فهم وعمق نظر ، قال :

« أقول في معنى البداء ما يقوله المسلمون بأجمعهم في النسخ وأمثاله ، من الافقار بعد الاغناء ، والامراض بعد الاعفاء ، والاماتة بعد الاحياء ، وما يذهب اليه أهل العدل خاصة من الزيادة في

الآجال والأرزاق ؛ والنقصان منها بالأعمال . فأما اطلاق لفظ البداء فانما صرتُ اليه بالسمع الوارد عن الوسائط بين العباد وبين الله عزوجل ، ولو لم يرد به سمع أعلم صحته ما استجزتُ اطلاقه ، كما انه لو لم يرد عليّ سمع بأن الله تعالى يغضب ويرضى ويحب ويعجب لما أطلقت ذلك عليه سبحانه ، ولكنه لما جاء به السمع صرتُ اليه على المعاني التي لا تأباها العقول، وليس بيني وبين كافة المسلمين في هذا الباب خلاف، وانما خالف مَنْ خالفهم في اللفظ دون سواه ، وهذا مذهب الامامية بأسرها ، وكل من فارقها في المذهب ينكره على ما وصفت من الاسم دون المعنى » .(١٨)

وقال أيضا :

« قول الامامية في البداء طريقه السمع دون العقل ، وقد جاءت الأخبار به عن أئمة الهدى عليهم السلام . والأصل في البداء الظهور ، قال الله تعالى : (وبدا لهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون) يعني به : ظهر لهم من أفعال الله تعالى بهم ما لم يكن في حسبانهم وتقديرهم ، وقال : (وبدا لهم سيئات ما كسبوا وحاق بهم) يعني : ظهر لهم جزاء كسبهم وبان لهم ذلك ، وتقول العرب : قد بدا لفلانٍ عمل حسن وبدا له كلام فصيح كما يقولون : بدا من فلان كذا ، فيجعلون اللام قائمةً مقامه . فالمعنى في قول الامامية : بدا لله في كذا ، أي ظهر له فيه ، ومعنى ظهر له أي ظهر منه ، وليس المراد منه تعقب الرأي ووضوح أمر كان قد خفي عنه ، وجميع أفعاله تعالى الظاهرة في خلقه بعد أن لم تكن فهي معلومة [له] فيما لم يزل ، وانما يوصف منها بالبداء ما لم يكن في الاحتساب ظهوره ولا في غالب الظن وقوعه ، فأما ما عُلِمَ كونه وغلب في الظن حصوله فلا يستعمل فيه لفظ البداء ، وقول أبي عبدالله عليه السلام : « ما بدا لله في شيء كما بدا له في اسماعيل » فانما أراد به ما ظهر من الله تعالى فيه من دفاع القتل عنه وقد كان مخوفاً عليه من ذلك مظنوناً به فلطف له في دفعه عنه ، وقد جاء

الخبر بذلك عن الصادق عليه السلام ، فرُوي عنه (ع) انه قال : « كان القتل قد كُتِب على اسماعيل مرتين فسألتُ الله في دفعه عنه فدفعه » . وقد يكون الشيء مكتوباً بشرطٍ فيتغير الحال فيه ، قال الله تعالى : (ثم قضى أجَلاً وأجلٌ مسمىً عنده)، فتبين أنّ الآجال على ضربين: ضرب منها مشترط يصح فيه الزيادة والنقصان ، ألا ترى الى قوله تعالى : (وما يعمّر من معمَّر ولا ينقص من عمره الاّ في كتاب) وقوله تعالى : (ولو أنّ أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركاتٍ من السماء والأرض) ، فبيَّن ان آجالهم كانت مشترطة في الامتداد بالبر والانقطاع بالفسوق ، وقال تعالى فيما خبَّر به عن نوح ـ ع ـ في خطابه لقومه : (استغفروا ربكم انه كان غفّاراً يرسل السماء عليكم مدرارا ـ الى آخر الآيات ـ) فاشترط لهم في مَدّ الأجل وسبوغ النعم الاستغفار ، فلما لم يفعلوه قطع آجالهم وبتر أعمارهم واستأصلهم بالعذاب ، فالبداء من الله تعالى يختص ما كان مشترطاً في التقدير ، وليس هو الانتقال من عزيمة الى عزيمة ولا من تعقُّب الرأي) .(١٩)

(١) النهاية لابن الاثير : ١/٦٨ ، ويقول ابن حزم فى تفسير البداء : انه «الانتقال عن المأمور به بأمر حادث لا بعلمٍ سابق» الناسخ والمنسوخ : ٣١٣ • ويفسر الدكتور صبحي الصالح البداء بأنه « يصدر عن الذي يرى الرأي ثم يبدو له » ثم أنكر « الخلط بين النسخ بأسراره الحكيمة والبداء بكل قبحه وفساده ودلالته على الجهل » !!• مباحث فى علوم القرآن : ٢٧٢ •

(٢) تفسير الرازي : ٥/٢١٠ •

(٣) لسان العرب : ١٤/٦٥ ـ ٦٦ •

(٤) اصول الكافي : ١/١٤٨ •

(٥) البيان : ١/٢٧٤ •

(٦) اصول الكافي : ١/١٤٨ •

(٧) نفس المصدر : ١/١٤٨ •

(٨) اصول الكافي : ١/١٤٦ ـ ١٤٧ •

(٩) يراجع فى تفصيل ذلك مجمع البيان : ٣/٢٩٨ •

(١٠) اصول الكافي : ١/١٤٧ •

(١١) نفس المصدر : ١/١٤٧ •

(١٢) نفس المصدر : ١/١٤٧ •

(١٣) البيان : ١/٢٧٣ •

(١٤) أخرج الترمذي عن رسول الله (ص) قوله : لا يرد القضاء الا الدعاء ولا يزيد فى العمر الا البر • سنن الترمذي : ٤/٤٤٨ ، وأخرج ابن ماجه عنه (ص) قوله : لا يزيد فى العمر الا البر ، ولا يرد القدر الا الدعاء وان الرجل ليحرم الرزق بخطيئة يعملها • سنن ابن ماجة : ١/٣٥ •

(١٥) اصول الكافي : ١/١٤٦ •

(١٦) صحيح البخاري : ٤/٢٠٨ ونهاية ابن الأثير ١/٦٨ •

(١٧) مقدمة كتاب عقائد الامامية بقلم الدكتور حامد حفني داود: ص٢٧ـ٢٨•

(١٨) أوائل المقالات : ٥٣ ـ ٥٤ •

(١٩) شرح عقائد الصدوق : ٢٤ ـ ٢٥ •

شُبُهَاتُ التَّحْرِيف

من الشبهات التي روّجها اعداء الاسلام وأثاروا حولها اللغط والضجيج ؛ ما زعموه من وقوع التحريف والتغيير في النص القرآني ، مستندين فى ذلك الى بعض الروايات التي تناولها المحدّثون بلا تمحيص ؛ والى بعض ما وقع بين القراء من اختلاف في القراءات .

ثم كانت الطامّة الكبرى في هذه المزاعم أن نسب بعض الكتاب الى الشيعة الامامية القول بتحريف القرآن ، من دون أن يكون على ذلك أي دليل سوى الجهل الأعمى أو التعصب الحاقد . وكان من نتائج هذه الأراجيف الباطلة أن ينساق في هذا التيار الضالّ المضل رجال لهم من الفضل والوعي ما كان ينبغي أن يجنّبهم هذه المزالق ويسمو بهم عن هذه المهاوي أمثال الاستاذ مصطفى صادق الرافعي الذي يقول :

انّ قوما كانوا « يجدون في الشك لذةً وفي القلق والاضطراب رضا وهم الرافضة ، وقد شكّوا في نص القرآن وقالوا : انه وقع فيه نقص وزيادة وتغيير وتبديل »[1] .

وأمثال الشيخ محمد عبدالعظيم الزرقاني الاستاذ بالجامع الازهر الذي يقول :

« يزعم بعض غلاة الشيعة ان عثمان ومن قبله أبو بكر وعمر قد حرّفوا القرآن وأسقطوا كثيراً من آياته وسوره » وأن « القرآن الذي بأيدي المسلمين اليوم شرقاً وغرباً أشَدُّ تحريفاً عند هؤلاء الشيعيين من التوراة والانجيل وأضعف تأليفاً منهما وأجمع للاباطيل . قاتلهم الله أنّى يؤفكون »[2] .

والى كثير من أمثال هؤلاء ممن اتبع الهوى وحاد عن سبيل الحق ولم يلتزم بالموضوعية التي تحتم على الباحث الاستقراء والفحص قبل اصدار الحكم القاطع والرأي الجازم .

وقبل التصدي لمناقشة هذه المزاعم ينبغي لنا البحث في معاني التحريف كما وردت في مصادر اللغة والتفسير لنستطيع على ضوء ذلك معرفة الغث من السمين والتمييز بين الحق والباطل في هذه الحكايات المدعاة .

لقد استعمل القرآن لفظ « التحريف » بمعنى التغيير والتبديل[٣] وتفسير الكلام بغير مراد القائل « لا عن جهل ، بل عن عمد وضلال »[٤] ، وبهذا فُسِّر قوله تعالى : (يحرِّفون الكلم عن مواضعه) أي « يبدِّلون كلمات الله وأحكامه عن مواضعها»[٥] «يعني بذلك ما غيَّروه ـ أي اليهود ـ من حكم الله في الزنا ونقلوه من الرجم الى أربعين جلدة .... ، وقيل أراد به تحريفهم التوراة بتحليلهم الحرام وتحريمهم الحلال فيها »[٦] .

ويمثل ذلك أيضاً فُسِّر قوله تعالى : (يسمعون كلام الله ثم يحرِّفونه) أي يتأوَّلونه على غير تأويله[٧] .

وهذا المعنى هو الذي أشار اليه الامام الباقر ـ ع ـ بقوله : « وكان من نبذهم الكتاب أن أقاموا حروفه وحرَّفوا حدوده ، فهم يروونه ولا يرعَونه » .[٨]

واذن فكل من فَسَّر القرآن بغير مراد الله تعالى فقد حرَّف ، وحيث أن كثيرا من أهل البدع والآراء الباطلة قد فعلوا ذلك وأوَّلوا كلام الله بحسب أهوائهم فقد وقع التحريف بهذا المعنى في القرآن الكريم. وليس في القول بوقوع ذلك أي خروج على الدين أو طعن بكتاب الله .

وقد يطلق « التحريف » على ما يصيب بعض الكلمات من زيادة أو نقص في شيء من حروفها ، والتحريف بهذا المعنى واقع أيضاً في القرآن ،

وان نظرة واحدة نلقيها على اختلاف القراء فى قراءاتهم تدلنا دلالة واضحة على وقوع مثل ذلك ؛ بما ادّعاه هؤلاء القراء من زيادة بعض الحروف أو نقصانها ، وليس فى القول بوقوع هذا التحريف أي شائبة أو خروج على الاسلام .

وقد يستعمل « التحريف » بمعنى اضافة كلمات الى بعض الآيات وهي ليست من القرآن المنزل على رسول الله صلى الله عليه وآله ، وذلك ما يعبَّر عنه بـ « الزيادة » في اصطلاح المفسرين .

وقد اتفق المسلمون على نفي ذلك وعدم وقوعه في القرآن ، لأن النص القرآني نص معجز ، وقد سمعه المسلمون من فم النبي ـ ص ـ وحفظوه ، ثم تواترت روايتهم له ، ولم تشبه أية شائبة زيادة أبدا .

وعلى ذلك أجمعت الشيعة الامامية واتفقت كلمتهم وروى هذا الاجماع عددٌ من أعلامهم أمثال الشيخ المفيد(٩) والسيد الشريف المرتضى(١٠) ؛ والشيخ الطوسي (١١) ؛ والشيخ الطبرسي(١٢) .

ولعلَّ أول مؤلِّفٍ مسلمٍ روى خبر وقوع الزيادة في القرآن هو البخاري صاحب الصحيح فقد أخرج بسنده عن ابراهيم بن علقمة انه قال :

« دخلتُ في نفر من أصحاب عبدالله الشام ، فسمع بنا أبو الدرداء فأتانا فقال : أفيكم مَنْ يقرأ ؟ فقلنا : نعم ، قال : فأيكم أقرأ ؟ فأشاروا اليَّ ، فقال : اقرأ ، فقرأت : (والليل اذا يغشى والنهار اذا تجلى والذكر والانثى) قال : أنت سمعتَها من في صاحبك ؟ قلتُ : نعم ، قال : وأنا سمعتها من في النبي صلى الله عليه وسلم ، وهؤلاء يأبون علينا [ويقولون] : (وما خلق الذكر والانثى) » .

كما أخرج بسندٍ آخر عن ابراهيم أيضا قوله :

« قدم أصحاب عبدالله على أبي الدرداء فطلبهم فوجدهم فقال : أيكم

يقرأ على قراءة عبدالله ؟ قال : كلنا ، قال : فأيكم يحفظ ؟ وأشاروا الى علقمة ، قال : كيف سمعتَه يقرأ : (والليل اذا يغشى) ؟ قال علقمة : (والذكر والانثى) ، قال : أشهد أني سمعتُ النبي صلى الله عليه وسلم يقرأ هكذا ، وهؤلاء يريدونني على أن أقرأ : (وما خلق الذكر والانثى) ، والله لا اتابعهم »(١٣) .

ثم جاء من بعد البخاري رواةٌ من قبيل عبدالله بن أحمد بن حنبل والطبراني والبزار وابن مردويه فأخرجوا بسندهم عن عبدالله بن مسعود انكاره لقرآنية الفاتحة والمعوّذتين واسقاطها من مصحفه وتصريحه بأنها ليست من كتاب الله(١٤) .

وعلى الرغم من صراحة هذه الروايات بوقوع زيادة في مصاحف المسلمين لم تكن من القرآن المنزل على النبي ـ ص ـ وعلى الرغم من تداول هذه الروايات في كتب التفسير والحديث فاننا نرفضها رفضاً قاطعاً لأنها أخبار آحاد لا تحمل أيَّ معنى من معاني الحجية والاعتبار ، وغير جائز لأحدٍ أن يتقوّل على كتاب الله تعالى «شيئاً لم يأت به الخبر القاطع»(١٥) القائم على التواتر المفيد لليقين .

* * *

ومن موارد استعمال لفظ « التحريف » أن يُقْصَد به نقص القرآن وضياع بعضه ، وهذا هو المعنى الذي كثر فيه الكلام والجدل وطال به الأخذ والرد واتُّهِمت الشيعة الامامية باقراره والقول به .

ولعلَّ أول ما ينبغي أن نقوله في رد هذا الاتهام أن نسجل بكل صراحة وعلانية رفضَ الشيعة للقول بنقص القرآن ونفيهم ذلك كل النفي وايمانهم ببطلان هذا القول وفساده ؛ واعراضهم عن سائر ما رواه المحدّثون والرواة بهذا الشأن كما يتجلى من كلمات اعلامهم التي نسوق نماذج منها في أدناه قبل الدخول في صميم الموضوع .

يقول الشيخ الصدوق :

« اعتقادنا أن القرآن الذي أنزله الله تعالى على نبيه محمد ـ ص ـ هو ما بين الدفتين ، وهو ما في أيدي الناس ، ليس بأكثر من ذلك ••• ومن نسب الينا أنّا نقول انه أكثر من ذلك فهو كاذب »(١٦) .

ويقول الشيخ المفيد :

« انه لم ينقص من كلمة ولا من آية ولا من سورة ، ولكن حُذِفَ ما كان مثبتاً في مصحف أمير المؤمنين ـ ع ـ من تأويله وتفسير معانيه على حقيقة تنزيله »(١٧) .

ويقول الشريف المرتضى :

«ان العلم بصحة نقل القرآن كالعلم بالبلدان والحوادث الكبار والوقائع العظام والكتب المشهورة واشعار العرب المسطورة ، فان العناية اشتدت والدواعي توفرت على نقله وحراسته وبلغت الى حد لم يبلغه ما ذكرناه ، لأن القرآن معجزة النبوة ومأخذ العلوم الشرعية والأحكام الدينية ، وعلماء المسلمين قد بلغوا في حفظه وحمايته الغاية حتى عرفوا كل شيء اختلف فيه من اعرابه وقراءته وحروفه وآياته ، فكيف يجوز أن يكون مغيَّراً أو منقوصاً مع العناية الصادقة والضبط الشديد »(١٨) .

ويقول الشيخ الطوسي :

« والنقصان منه فالظاهر أيضا من مذهب المسلمين خلافه ، وهو الأليق بالصحيح من مذهبنا ، وهو الظاهر في الروايات . غير انه رويت روايات كثيرة من جهة الخاصة والعامة بنقصان كثير من آي القرآن ونقل شيء منه من موضع الى موضع ؛ طريقها الآحاد التي لا توجب علماً ولا عملاً . والأولى الاعراض عنها وترك التشاغل بها »(١٩) .

ويقول الشيخ الطبرسي :

« وأما النقصان منه فقد روى جماعة من أصحابنا وقوم من حشوية العامة أنَّ في القرآن تغييراً ونقصاناً ، والصحيح من مذهب أصحابنا خلافه »[٢٠] .

ويقول الشيخ البلاغي :

« ولئن سمعتَ في الروايات الشاذة شيئاً في تحريف القرآن وضياع بعضه فلا تُقِمْ لتلك الروايات وزناً ، وقل ما يشاء العلم في اضطرابها ووهنها وضعف رواتها ومخالفتها للمسلمين »[٢١] .

ويقول السيد الخوئي :

« وقد تبين للقارىء مما ذكرناه ان حديث تحريف القرآن حديث خيالي لا يقول به الا مَنْ ضعف عقله أو من لم يتأمل في أطرافه حق التأمل أو من الجأه اليه حب القول به والحب يعمي ويصم ، وأما العاقل المنصف المتدبر فلا يشك في بطلانه »[٢٢] .

هذا ما يقوله علماء الشيعة الامامية من المتقدمين والمتأخرين فى هذا الموضوع ، وكله صريح ودال على المقصود بمنتهى الوضوح ، ومع ذلك فقد دأب الكُتّاب المغرضون على نبز الشيعة ولمزهم بالقول بنقص القرآن .

وحيث اني لا اريد استيعاب أقوال سائر الشاتمين والطاعنين لضيق المجال عنها ؛ فاني أكتفي هنا بمناقشة واحدٍ من هؤلاء على سبيل المثال ، ذلك هو الشيخ محمد عبدالعظيم الزرقاني الذي أقامت منه الصدف استاذاً في الازهر وجعلت كتابه « مناهل العرفان في علوم القرآن » كتاباً دراسياً يعتمد عليه طلبة هذه الجامعة الاسلامية الشهيرة . وقد نالت الشيعة من سباب هذا الكتاب نصيباً كبيراً يثير الأسف ويبعث على الألم والأسى ، ونورد فيما يلي فقرات من تلك الشتائم التي حفل بها الكتاب ثم نردفها بالمناقشة الموضوعية القائمة على الحجة والبرهان ، والمترفعة عن السب والاسفاف .

قال الشيخ الزرقاني :

روى الشيعة « عن هشام بن سالم عن أبي عبدالله ان القرآن الذي جاء به جبريل الى محمد ـ ص ـ كان سبعة عشر الف آية • وروى محمد ابن نصر عنه انه قال : كان في سورة « لم يكن » اسم سبعين رجلا من قريش بأسمائهم وأسماء آبائهم • وروى محمد بن جهم الهلالي وغيره عن أبي عبدالله ان لفظ « امة هي أربى من امة » في سورة النحل ليس كلام الله بل هو محرّف عن موضعه ؛ وحقيقة المنزل « أئمة هي أزكى من أئمتكم » ، ومنهم من قال: ان القرآن كانت فيه سورة تسمى سورة الولاية وانها أُسقطت بتمامها، وان أكثر سورة الاحزاب سقط اذ أنها كانت مثل سورة الانعام فأسقطوا منها فضائل أهل البيت • وكذلك ادعوا ان الصحابة أسقطوا لفظ ـ ويلك ـ من قبل « لا تحزن ان الله معنا » وأسقطوا لفظ ـ عن ولاية علي ـ من بعد « وقفوهم انهم مسؤولون » وأسقطوا لفظ ـ بعلي بن أبي طالب ـ من بعد « وكفى الله المؤمنين القتال » وأسقطوا لفظ ـ آل محمد ـ من بعد « وسيعلم الذين ظلموا » الى غير ذلك » •

ثم يقول :

« انهــا اتهامــات مجرّدة عن السند والدليل ، وكانت لا تستحق الذكر لولا أنْ رددها بعض الملاحدة وربما يخدع بها بعض المفتونين • ويكفي في بطلانها انهم لم يستطيعوا ولن يستطيعوا أن يقيموا عليها برهاناً ولا شبه برهان •

والدعاوى ما لم تقيموا عليها بينــاتٍ أبناؤهــا أدعيـــاءُ

ولكن هكذا شاءت حماقتهم وسفاهتهم « ومن يهن الله فماله من مكرم ان الله يفعل ما يشاء » •

ويقول :

« ان التواتر قد قام والاجماع قد انعقد على أن الموجود بين دفتّي المصحف كتاب الله من غير زيادة ولا نقصان ولا تغيير ولا تبديل • والتواتر طريق واضحة من طرق العلم والاجماع سبيل قويم من سبل الحق « فماذا بعد الحق الا الضلال » •

« ان الامام علي بن أبي طالب كرم الله وجهه وهو الذي يزعمون أنهم يناصرونه ويتشيعون له بهذه الهذيانات صح النقل عنه بتحبيذ جمع القرآن على عهد أبي بكر ثم عهد عثمان ••• وبهذا قطع الامام ألسنة اولئك المفترين وردَّ كيدهم في نحورهم مخذولين فأين تذهبون « اذ تبرأ الذين اتُّبِعوا من الذين اتَّبَعوا ورأوا العذاب وتقطعت بهم الأسباب » •

« ان الخلافة قد انتهت الى علي كرم الله وجهه بعد أبي بكر وعمر وعثمان فماذا منعه أن يجهر وقتئذ بالحق في القرآن •••• ولقد صار الأمر بعده الى ابنه الحسن رضي الله عنه فماذا منعه الآخر من انتهاز هذه الفرصة كي يظهر حقيقة كتاب الله للامة • هذه مزاعم لا يقولها الا مجنون ولا يصدق بها الا مأفون »(٢٣) •

★ ★ ★

هكذا أطلق الشيخ الأزهري لقلمه العنان ، وانتقى من الفاظ اللغة ما يتلاءم وذوقه أمثال « حماقتهم » و « سفاهتهم » و « هذيانات » و «مجنون» و « مأفون » ، ولم يكلّف نفسه مؤنة الرجوع الى المصادر الرئيسة عند الشيعة ليعرف وجه الصواب ويميز بين الحق والباطل •

ولقد سبق منا ــ في صدر هذا الفصل ــ نقل آراء علماء الشيعة في هذا الموضوع ، ورأينا اجماعهم على نفي الزيادة والنقيصة في القرآن واتفاقهم مع الشيخ الزرقاني « على أن الموجود بين دفتي المصحف كتاب الله من غير زيادة ولا نقصان ولا تغيير ولا تبديل » ، فكيف سوّغ هذا الرجل لنفسه

ارسال هذه المزاعم ارسال المسلمات ، مع ان كل الشواهد على خلافها تماما .

واذا كانت في كتب الشيعة المعنية بجمع الحديث روايات تشعر بالنقصان فلا شأن لها لديهم مطلقا ، بل هي مرفوضة جملة وتفصيلا . وكتب الحديث عند الشيعة الامامية ليست صحاحاً كما هو الأمر عند غيرهم من المسلمين ، بل جمعت الغثّ والسمين والصحيح والضعيف ، ولابد لمن يريد العمل بحديثٍ منها أن يعرضه على قواعد الأخذ بالحديث ، فان تمّت موازين الصحة أُخِذَ به وان لم تتم لم يؤخذ به .

والغريب ان الشيخ الزرقاني قد نسي عند ما نسب الى الشيعة القول بنقصان سورة « لم يكن » حيث كان فيها « اسم سبعين رجلا من قريش بأسمائهم وأسماء آبائهم » على حد زعمه . أقول : نسي ان أول من روى ذلك هو شيخ المفسرين الطبري حيث أسند عن أنس بن مالك قوله :

« ان اولئك السبعين الذين قتلوا ببئر معونة قرأنا بهم وفيهم كتاباً : بلّغوا عنّا قومنا أنّا لقينا ربنا فرضي عنا وأرضانا . ثم ان ذلك رُفِع »(٢٤) .

« وأخرج الحاكم في المستدرك عن أبيّ بن كعب قال : قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« ان الله أمرني أن أقرأ عليك القرآن ، فقرأ : لم يكن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين ، ومن بقيتها : لو أن ابن آدم سأل وادياً من مال فأُعطيه سأل ثانيا ، وان سأل ثانياً فأُعطيه سأل ثالثاً ، ولا يملأ جوف ابن آدم الا التراب ويتوب الله على من تاب . وان ذات الدين عند الله الحنيفية غير اليهودية ولا النصرانية ومن يعمل خيراً فلن يكفره » .(٢٥)

لقد نسي الزرقاني هذه الروايات التي أخرجها حفاظ السنة وهي

صريحة في نقص سورة لم يكن ، ثم رمى الشيعة بما لم يقولوه ظلماً وعدوانا .

واتهم الزرقاني الشيعة أيضا بالقول بسقوط أكثر سورة الاحزاب ، في حين ان ذلك هو قول السيدة عائشة فيما حدَّث به السيوطي عنها اذ تقـول :

« كانت سورة الأحزاب تُقْرَأ في زمن النبي صلى الله عليه وسلم مائتي آية فلما كتب عثمان المصاحف لم نقدر منها الا ما هو الآن »(٢٦) .

وروى السيوطي عن مصحف عائشة ان فيه من سورة الاحزاب : ان الله وملائكته يصلون على النبي يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليما وعلى الذين يصلُّون الصفوف الاول . قالت : قبل أن يغير عثمان المصاحف »(٢٧) .

ثم كان ابيّ بن كعب ممن ذهب مذهب السيدة عائشة في ادعائها ، فقد حدَّث زربن حبيش « قال : قال لي ابيّ بن كعب : كأين تعد سورة الاحزاب ؟ قلت : اثنتين وسبعين آية أو ثلاثة وسبعين آية ، قال : ان كانت لتعدل سورة البقرة وان كنا لنقرأ فيها آية الرجم »(٢٨) .

ومع كل هذه الروايات فان الزرقاني يغمض عينيه عن الأمر الواقع ثم يتهم الشيعة بما ينفونه كل النفي .

ولزيادة الايضاح نقول :

ان روايات نقصان القرآن قد وردت في كتب طوائف المسلمين من غير الشيعة أكثر مما وردت فى كتب الشيعة ، وان في جملة القائلين بالنقصان من الصحابة والتابعين ممن وردت الرواية عنهم في كتب الحديث السنية المعتبرة مَنْ لا يصح رد قولهم عند المتمسكين بهم . ونورد فى أدناه بعضاً من تلك الروايات على نحو التمثيل لا الاستيعاب ليتضح مدى التجني الذي تطاول به المتطاولون على الشيعة الامامية :

« خطب الخليفة عمر بن الخطاب فقال في جملة ما قال :

« أما بعد : فاني قائل لكم مقالة قد قُدِّر لي أن أقولها ، لا أدري لعلها بين يدي أجلي ، فمن عقلها ووعاها فليحدِّث بها حيث انتهت به راحلته ، ومن خشي أن لا يعقلها فلا أُحِلُّ لأحد أن يكذب عليّ .

« ان الله بعث محمداً ـ صلى الله عليه وسلم ـ بالحق وأنزل عليه الكتاب ، فكان مما أنزل الله آية الرجم فقرأناها وعقلناها ووعيناها . رجم رسول الله صلى الله عليه وسلم ورجمنا بعده ، فأخشى ان طال بالناس زمان أن يقول قائل : والله ما نجد آية الرجم في كتاب الله ، فيضلوا بترك فريضة أنزلها الله ، والرجم في كتاب الله حق على من زنى اذا أُحصن من الرجال والنساء اذا قامت البينة أو كان الحبل أو الاعتراف » .

« ثم انّا كنّا نقرأ فيما نقرأ من كتاب الله : « أن لا ترغبوا عن آبائكم فانه كفر بكم أن ترغبوا عن آبائكم » أو « ان كفراً بكم أن ترغبوا عن آبائكم » .(٢٩)

وفي نصٍّ آخر :

« لولا أكره أن يقول الناس قد زاد في القرآن ما ليس فيه لكتبتُ آية الرجم وأثبتُّها ، فو الله لقد قرأناها على رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا ترغبوا عن آبائكم فان ذلك كفر بكم . الشيخ والشيخة اذا زنيا فارجموهما البتة نكالاً من الله والله عزيز حكيم » .(٣٠)

« عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : كنا نقرأ سورةً تعدل سورة التوبة ما أحفظ منها الا هذه الآية : لو كان لابن آدم واديان من ذهب لابتغى اليهما ثالثاً ولو أن له ثالثاً لابتغى اليه رابعاً ولا يملأ جوف ابن آدم الا التراب ، ويتوب الله على من تاب » .(٣١)

« بعث أبو موسى الأشعري الى قراء أهل البصرة فدخل عليه ثلاثمائة

رجل قد قرأوا القرآن ، فقال : أنتم خيار أهل البصرة وقرّاؤهم ، فاتلوه ولا يطولنّ عليكم الأمد فتقسو قلوبكم كما قست قلوب من كان قبلكم ، وانا كنا نقرأ سورةً كنا نشبهها في الطول والشدة ببراءة فأُنسيتها غير أني قد حفظت منها : « لو كان لابن آدم واديان من مال لابتغى وادياً ثالثاً ، ولا يملأ جوف ابن آدم الا التراب »

وكنا نقرأ سورة كنا نشبهها باحدى المسبِّحات فأُنسيتها ، غير أني حَفظتُ منها : « يا أيها الذين آمنوا لِمَ تقولون ما لا تفعلون فتكتب شهادة في أعناقكم فتُسألون عنها يوم القيامة » .(٣٢)

يقول مالك بن أنس في تعليل عدم كتابه البسملة في سورة براءة : « ان أولها لما سقط سقطت معه البسملة ، فقد ثبت انها كانت تعدل البقرة لطولها »(٣٣) ، وفي مستدرك الحاكم عن حذيفة قال : « ما تقرأون ربعها يعني براءة »(٣٤)

كان عدد السور في مصحف أُبيّ بن كعب مائة وست عشرة سورة لانه كتب في آخره سورتي الحفد والخلع » .(٣٥)

وسورة الخلع المزعومة هي : « اللهم انا نستعينك ونستغفرك ، ونثني عليك ولا نكفرك ، ونخلع ونترك من يفجرك » .

أما سورة الحفد المدعاة فهي : « اللهم اياك نعبد ، ولك نصلي ونسجد ، واليك نسعى ونحفد ، نرجو رحمتك ونخشى عذابك ان عذابك بالكفار ملحق » .

وروى بعض المحدّثين ان هاتين السورتين كانتا في مصحف ابن عباس ، وأخرج الطبراني عن أبي اسحاق قوله : « أمّنا امية بن عبدالله بن خالد بن اسيد بخراسان فقرأ بهاتين السورتين » .(٣٦)

« أخرج الطبراني عن عمر بن الخطاب مرفوعاً : القرآن الف الف

وسبعة وعشرون الف حرف ، فمن قرأه صابراً محتسباً كان له بكل حرف زوجة من الحور العين » .[٣٧]

والقرآن المتداول « ثلثمائة الف حرف وثلاثة وعشرون الفاً وخمسة عشر حرفاً »[٣٨] أو « ثلثمائة الف وأربعون الفاً وسبعمائة وأربعون حرفاً » .[٣٩]

« أخرج ابن مردويه عن ابن مسعود قال : كنا نقرأ على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يا أيها الرسول بلّغ ما أُنزل اليك من ربك ان عليا مولى المؤمنين وان لم تفعل فما بلغتَ رسالته والله يعصمك من الناس » .[٤٠]

روى السيوطي : « ان عمر سأل عن آية من كتاب الله فقيل : كانت مع فلان قُتِل يوم اليمامة ، فقال : انا لله وأمر بجمع القرآن » .[٤١]

أخرج الطبري عن أبي نضرة قال : « قرأت هذه الآية على ابن عباس « فما استمتعتم به منهن » قال ابن عباس : « الى أجل مسمى » قال : قلتُ ما أقرؤها كذلك ، قال : والله لأنزلها الله كذلك ثلاث مرات » .[٤٢]

كما أخرج عن عمرو بن مرة أنه « سمع سعيد بن جبير يقرأ : « فما استمتعتم به منهن الى أجل مسمى فآتوهن اجورهن »[٤٣] ، ومثل ذلك أخرج عن ابي بن كعب[٤٤] .

قرأ ابن عباس : « يأخذ كل سفينة صالحة غصبا » بزيادة « صالحة »[٤٥] .

قالت السيدة عائشة : « كان فيما أُنزل من القرآن : (عشر رضعات معلومات يحرمن) ، ثم نُسِخْن ، « بخمس معلومات » ، فتوفي رسول الله صلى الله عليه وسلم وهُنَّ فيما يقرأ من القرآن » .[٤٦]

وقرأ ابن عباس : « ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلاً من ربكم في

مواسم الحج »[٤٧] بزيادة « في مواسم الحج » .

« قال عمر لعبدالرحمن بن عوف : ألم تجد فيما أُنزل علينا : أن جاهدوا كما جاهدتم أول مرة . فانّا لا نجدها ، قال : أُسقطت فيما أُسقط من القرآن » .[٤٨]

« عن ابي سفيان الكلاعي : ان مسلمة بن مخلد الأنصاري قال لهم ذات يوم : أخبروني بآيتين في القرآن لم يكتبا في المصحف ، فلم يخبروه .... فقال مسلمة : ان الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم الا أبشروا أنتم المفلحون . والذين آووهم ونصروهم وجادلوا عنهم القوم الذين غضب الله عليهم اولئك لا تعلم نفس ما أُخفي لهم من قرة عين جزاءا بما كانوا يعملون » .[٤٩]

* * *

ان أول ما نستخلصه من استعراض النقول السالفة الذكر ـ وعلى شاكلتها كثير ـ ان غير الشيعة قد رووا في نقص القرآن من الأحاديث والتصريحات على لسان بعض الصحابة والتابعين ما يفوق نقول الشيعة أضعاف المرات ، وما تضيق بسرده صفحات محدودة كهذه الصفحات . ومع ذلك كله فان (عين الرضا !!) لم تبصر هذه الروايات ـ مع كثرتها المفرطة ـ ، وان لسان التشهير لم يعرف غير الشيعة مورداً للطعن والقذف والسباب « ولا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم » .

وبهذا الاستعراض يتضح لكل ذي عينين مدى الزيف الذي تحمله مؤلفات الزرقاني وأمثاله؛ وافتقادها لأي شأن أو وزن أو قيمة بين كتب الدراسات المنهجية ، وخلوها من كل ملامح البحث العلمي الذي يجب أن يقوم على الصدق والموضوعية والتجرد الامين .

وعلى كل حال فان هذه المنقولات ـ في كثرتها الكاثرة وفي لمعان أسماء

رواتها وفي الهالة التي تحيط بالكتب التي روتها ــ لم تستطع ولن تستطيع أن تثير الغبار أو تنشر الضباب حول الحقيقة الخالدة التي لا تقبل الجدل ولا تحتمل المناقشة ، وهي سلامة القرآن من التلاعب والتحريف ، تلك السلامة التي تعهد بها رب القرآن في قوله عزَّ من قائل : (انّا نحن نزَّلنا الذكر وانا له لحافظون) ، حيث دلت هذه الآية الكريمة بصراحة مطلقة على صيانة الكتاب المجيد من الزيادة والنقصان ، وحفظه من التلاعب والعبث (ومَنْ أصدق من الله قيلاً) (ومن أصدق من الله حديثا) .

أما ما ورد في بعض كتب الحديث الشيعية مما يشعر باختلاف المصحف الذي جمعه علي (ع) بعد وفاة النبي صلى الله عليه وآله وسلم عن مصحف عثمان ، فانما يُقْصَد به اختلاف الشكل لا المضمون ، فان علياً عليه السلام قد رتَّب آيات مصحفه بحسب تسلسل نزولها على النبي ــ ص ــ ، ومصحف عثمان لم يُلاحَظْ فيه تسلسل النزول ، كما أن مصحف علي ــ كما يحدثنا الشيخ المفيد ــ كان يتضمن تفسير الآيات وتأويلها بالاضافة الى نصوصها(٥٠) ، وقد حذفت هذه الزيادات من مصحف عثمان واقتصر فيه على الآيات الكريمة مجردة عن التفسير والبيان ، وليس لذلك أي ارتباط بمسألة الزيادة والنقيصة في القرآن .

وتدلنا بعض النصوص التاريخية على أن كثيراً من الصحابة قد التزموا باضافة التفسير الى الآيات القرآنية ــ كما فعل علي عليه السلام ــ ، فقد روى الجزري عن عدد من الصحابة انهم « كانوا ربما يدخلون التفسير في القراءة ايضاحا وبيانا ، لانهم محققون لما تلقَّوه عن النبي صلى الله عليه وسلم قرآنا ، فهم آمنون من الالتباس ، وربما كان بعضهم يكتبه معه »(٥١) .

* * *

(وانه لكتاب عزيز لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد) .

(١) تحت راية القرآن : ١٤٩ ٠
(٢) مناهل العرفان : ٢٧٣ ـ ٢٧٤ ٠
(٣) لسان العرب : ٤٣/٩ ٠
(٤) آلاء الرحمن : ١٠٢/١ ٠
(٥) مجمع البيان : ٥٥/٢ ٠
(٦) نفس المصدر : ١٩٤/٢ ، ويراجع تفسير الطبري : ٣٦٧/١ ٠
(٧) تفسير ابن كثير : ١١٥/١ و ٥٠٧ ٠
(٨) روضة الكافى : ٥٣ ٠
(٩) أوائل المقالات : ٥٦ ٠
(١٠) مجمع البيان : ١٥/١ ٠
(١١) التبيان : ٣/١ ٠
(١٢) مجمع البيان : ١٥/١ ٠
(١٣) صحيح البُخارى : ٢١٠/٦ ـ ٢١١ ٠
(١٤) يراجع فى تفاصيل ذلك كتاب الاتقان للحافظ السيوطي : ١٣٦/١ ـ ١٣٨ ٠
(١٥) تفسير الطبرى : ١٣/٥ ٠
(١٦) اعتقادات الصدوق : ١٣٢ ٠
(١٧) أوائل المقالات : ٥٥ ـ ٥٦ ٠
(١٨) مجمع البيان : ١٥/١ ٠
(١٩) التبيان : ٣/١ ٠
(٢٠) مجمع البيان : ١٥/١ ٠
(٢١) آلاء الرحمن : ١٨/١ ٠
(٢٢) البيان : ١٨١/١ ٠
(٢٣) مناهل العرفان : ٢٧٣ ـ ٢٧٥ ٠
(٢٤) تفسير الطبري : ٤٧٩/١ ٠
(٢٥) الاتقان : ٤١/٢ ٠
(٢٦) نفس المصدر : ٤١/٢ ٠
(٢٧) نفس المصدر : ٤١/٢ ٠
(٢٨) نفس المصدر : ٤١/٢ ٠
(٢٩) صحيح البخاري : ٢٠٩/٨ ـ ٢١٠ وقريب منه فى صحيح مسلم : ١١٦/٥ وسنن ابي داود : ٤٥٦/٢ وسنن الترمذي : ٣٨/٤ ـ ٣٩ وسنن ابن ماجه ٨٥٣/٢ ٠

(٣٠) الناسخ والمنسوخ لابن سلامة : ٦ وقريب منه فى الناسخ والمنسوخ لابن حزم : ٣١٤ وتفسير ابن كثير : ١/١٤٩ · وروى البخارى بسنده عن سلمة بن كهيل قوله : « سمعت الشعبي يحدث عن علي رضي الله عنه حين رجم المرأة يوم الجمعة وقال : قد رجمتُها بسنة رسول الله ـ ص ـ صَحيح البخاري : ٨/٢٠٤ ·

(٣١) الناسخ والمنسوخ لابن سلامة : ٥ والناسخ والمنسوخ لابن حزم : ٣١٤ ويراجع تفسير ابن كثير : ١/١٤٩ وتفسير الطبري : ١/٤٧٩ ·

(٣٢) صحيح مسلم : ٣/١٠٠ ·

(٣٣) الاتقان : ١/١١٢ ·

(٣٤) الاتقان ٢/٤٢ ·

(٣٥) الاتقان : ١/١١٢ ·

(٣٦) الاتقان : ١/١١٣ ·

(٣٧) الاتقان : ١/١٢١ ·

(٣٨) تفسير ابن كثير : ١/٧ ·

(٣٩) نفس المصدر : ١/٧ ·

(٤٠) الدر المنثور : ٢/٢٩٨ وفتح القدير : ٢/٦٠ ·

(٤١) الاتقان : ١/١٠٠ ·

(٤٢) تفسير الطبري : ٥/١٢ ـ ١٣ ·

(٤٣) نفس المصدر : ٥/١٣ ·

(٤٤) نفس المصدر : ٥/١٣ ·

(٤٥) الاتقان : ١/١٣٢ ·

(٤٦) صحيح مسلم : ٤/١٦٧ ·

(٤٧) صحيح البخاري : ٦/٣٤ ·

(٤٨) الاتقان : ٢/٤٢ ·

(٤٩) نفس المصدر : ٢/٤٢ ·

(٥٠) أوائل المقالات : ٥٦ ·

(٥١) النشـر : ١/٣٢ ·

تفسير سورة القدر

بسم الله الرحمن الرحيم

إنا انزلناه فى ليلة القدر ۝ وما ادريك ما ليلة القدر ۝
ليلة القدر خير من الف شهر ۝ تنزل الملئكة والروح
فيها باذن ربهم من كل امر ۝ سلام هى حتى مطلع الفجر ۝

" صدق الله العلى العظيم "

(بسم الله الرحمن الرحيم)

(بسم) الباء حرف جر • والاسم فى اللغة معناه العلامــة ، وهمزتــه همزة وصل ، ولهذا تحذف في درج الكلام •

ولفظ «الاسم» مشتق من السموّ بمعنى الرفعة ، وذلك لأن المعنى يرتفع به عن عالم المجهول فيخرج من الخفاء الى الظهــور ، حيث يحضر المسمى واضحاً في ذهن السامع بواسطة الاسم الخاص به •

وقيل : ان الاسم مشتق من السمة بمعنى العلامــة ، ولــكن اصول الاشتقاق الصرفي لا تساعد على ذلك •

(الله) علم للذات الخالقة المقدسة ، وليس من المصطلحات الاسلامية الخاصة التي جاء بها القرآن لأول مرة ، بل كان معروفــاً كذلك عند عرب الجاهلية ، قال لبيد :

ألا كل شيء ما خلا الله باطلُ وكل نعيمٍ لا محالة زائلُ[1]

وقال سبحانه وتعالى على لسان أهل الجاهلية : (ولئن سألتَهم من خلق السماوات والأرض ليقولنّ : الله) •

ومعنى « الله » و « الاله » ــ لغة ــ : أنه الذي تحق له العبادة •

(الرحمن) مشتق من الرحمة ، ومعناها معروف ، وهي ضد القسوة والشدة ، قال تعالى : (أشدّاء على الكفّار رحماء بينهم) •

وصيغة « الرحمن » هنا يُقْصَد بها المبالغة في الرحمة ، حيث تعني

رحمته التي وسعت كل شيء وعمّت كل شيء ، وهذا العموم هو المقصود بالمبالغة .

وكلمة « الرحمن » كما يظهر من القرآن الكريم من الأسماء الخاصة بالله تعالى ، فلا يصح منّا اطلاقها على غيره ، قال تعالى: (الرحمن علّم القرآن خلق الانسان) ، وقال تعالى : (قل : ادعوا الله أو ادعوا الرحمن) .

(الرحيم) اسم فاعل من الرحمة ، ولاسم الفاعل من الفعل الثلاثي وزنان : « فاعل » نحو : قارىء وكاتب وكامل ، و « فعيل » نحو : رحيم وكريم وقدير .

والفرق بين « الرحمن » و « الرحيم » : ان لفظ الرحمن يعني ثبوت الرحمة لله تعالى بشكلها الواسع الكبير ، ولفظ الرحيم يعني أن هذه الرحمة من لوازم الذات التى لا تنفك عنها ، لان وزن «فعيل» في أكثر مصاديقه نحو : شريف ووضيع وكريم وبخيل وعليم وقدير ؛ لا يستعمل الا في التعبير عن الغرائز واللوازم التي لا تنفك عن الذات أو الصفات التي لها نحو من أنحاء الثبوت في الجملة .

وانما قُدّم لفظ الرحمن على الرحيم ولم يُعْكَس الامر لأن لفظ الرحمن ـ كما أسلفنا ـ يعنى سعة الرحمة وشمولها ، ولهذا كان من بلاغة الاستعمال أن يقدّم بالذكر ، ثم يردف ذلك بالصفة الثانية « الرحيم » تنبيهاً على أن هذه الصفة ليست طارئة على الله جل وعلا ، وانما هي ثابتة له ولن تنفك عن ذاته المقدسة .

ولما كانت الرسالة الاسلامية تهدف الى الرحمة بمعناها الحقيقي الشامل (وما أرسلناك الا رحمة للعالمين) كان لابدّ للبسملة أن تحمل هذه الصفة بالذات دون غيرها من الصفات ؛ لتلفت الانظار الى هذا الهدف الرئيس من الرسالة .

أما الغرض من الابتداء بالبسملة في رأس كل سورة ـ عدا سورة براءة ـ فهوتذكير قارىء القرآن باسم منزل هذا الكتاب المعجز وفضله الأكبر على البشرية في اخراجها من الظلمات الى النور ، وحيث أن سورة التوبة قد بدأت بالبراءة من المشركين والشدة عليهم والالزام بحربهم ومقاتلتهم كان من مقتضى البلاغة ـ مطابقةً للكلام لمقتضى الحال ـ أن تُستثنى هذه السورة من البسملة ، لأن البسملة ـ كما أسلفنا ـ تؤكد الرحمة ، ولا مجال لتأكيد الرحمة في سورة الحرب والقتال •

(إنّا أنزلناه في ليلة القـدر)

(انّا) الضمير لله تعالى ـ مع التعظيم ـ •

(أنزلناه) أي القرآن الكريم ، والنزول هنا معنوي كما مر في الفصل الاول من هذا الكتاب •

(فيليلة القدر) القدر ـ كما فسَّره بعضهم ـ بمعنىالقضاء والحكم ، وتكون ليلة القدر على ذلك ليلة قضاء الله وحكمه ، أى ما يقضيه لعبـاده من كل أمرٍ لعام كامل ، ويوضح هذا المعنى ما ورد في بعض الروايات والأدعية من أن الله تعالى يقدِّر في هذه الليلة شؤون عباده في عامهم كله ، كما يؤكد هذا المعنىقوله تعالى في سورة الدخان : (انا أنزلناه في ليلة مباركة انا كنا منذرين ، فيها يُفْرَقُ كل أمر حكيم) ، ويفرق كل أمر أي « يُقضى كل أمر محكم لا تلحقه الزيادة والنقصـان ، وهو أنه يقسم فيها الآجال والأرزاق وغيرها من امور السنة الى مثلها من العام القابل »[٢] •

والقدر ـ كما فسَّره بعض آخر ـ كون الشيء مساوياً لغيره من دون زيادة ولا نقصان ، كما نقول : هذا قَدْرُ ذاك أي مساوٍ له ،

وانما سُمِّيت هذه الليلة بليلة القدر لأن الله تعالى يعطي عباده من الخير في تلك الليلة على مقدار ما تستدعيه الحكمة والمصلحة بلا محاباة ولا تطفيف •

وللقدر معنى آخر اختاره بعض المفسرين هو معنى الشرف وعظم الشأن، كما نقول: رجل ذوقَدْر أو له قدر أي منزلة وشرف، وتكون ليلة القدر ـ على هذا المعنى ـ ليلة الشرف والشأن الكبير •[٣]

وفي القرآن آيات اخرى تؤكد نزول القرآن في هذه الليلة كقوله تعالى : (إِنّا أنزلناه في ليلة مباركة) وقوله تعالى : (شهر رمضان الذي أُنزل فيه القرآن) • وفي النص على نزول القرآن في شهر رمضان نفي صريح للاحتمال الذي ذهب اليه بعضهم من كون المقصود بقوله تعالى : (انا أنزلناه في ليلة مباركة) هي ليلة نصف شعبان[٤] •

(وما أدراك ما ليلةُ القدر)

الخطاب للنبي صلى الله عليه وآله وسلم ، والمقصود بهذه الجملة الفات انظار المسلمين الى أهمية هذه الليلة وشأنها ومكانها الخاص بين الليالي ، ليندفع المؤمن الى احيائها بالعبادة وقيامها بالذكر والعمل الصالح ، وفي الحديث المأثور عن النبي صلى الله عليه وآله انه قال : « من قام ليلة القدر ايماناً واحتساباً غُفِرَ له ما تقدَّم من ذنبه »[٥] •

(ليلةُ القدرِ خيرٌ من ألف شهر)

أوضح الله تعالى في هذه الآية ما أجمله في الآية السابقة ، فبيَّن انها خير من الف شهر ؛ أي أن الطاعة والقيام في ليلة القدر خير من الف شهر ليس فيها ليلة القدر •

ويروي الطبري ـ في ضمن حديثٍ طويل ـ عن عيسى بن مازن :

« ان رسول الله صلى الله عليه وسلم أُرِيَ في منامه بني امية يعلون منبره خليفة خليفة ، فشق ذلك عليه ، فأنزل الله : (انا أعطيناك الكوثر)و(انّا أنزلناه في ليلة القدر ، وما أدراك ما ليلة القدر ، ليلة القدر خير من الف شهر) يعني ملك بني امية(٦) .

(تَنَزَّلُ الملائكةُ والروحُ فيها باذن ربِّهم من كل أمر)

(تنزّل الملائكة) أي تتنزل .

(والروح) جبرئيل .

(فيها) في ليلة القدر .

(باذن ربهم) بأمره وعلمه .

(من كل أمر) من كل خيرٍ وبركة وأجَلٍ ورزق .

(سلامٌ هي حتى مطلع الفجر)

أي كلها سلامة من الشرور والبلايا والآفات . ومطلع الفجر هو نهاية الليل كما لا يخفى .

(١) ديوان لبيد : ٢٥٦ ٠

(٢) مجمع البيان : ٥/٦١ ٠

(٣) يراجع فى هذه المعاني وتفاصيلها مجمع البيان : ٥/٥١٧ ـ ٥١٨ ٠

(٤) مجمع البيان : ٥/٦١ ٠

(٥) مجمع البيان : ٥/٥٢٠ ٠

(٦) تفسير الطبري : ٣٠/٢٦٠ ، ويراجع لباب النقول للسيوطي : ٢٩٩٠

مراجع الكتاب

١ ـ الآء الرحمن ـ تفسير ـ : للبلاغي صيدا ١٣٥١ هـ
٢ ـ آيات الأحكام : للجزائري طهران ١٣٢٧ هـ
٣ ـ الاتقان : للسيوطي القاهرة ١٣٦٠ هـ
٤ ـ الاحتجاج : للطبرسي النجف ١٣٥٠ هـ
٥ ـ الاسلام والطب الحديث : لعبدالعزيز اسماعيل القاهرة ١٩٥٩ م
٦ ـ اصول الكافي : للكليني طهران ١٣٧٥ هـ
٧ ـ الاعتقادات : للصدوق النجف ١٣٤٣ هـ
٨ ـ الله يتجلى فى عصر العلم : لجماعة من الأساتذة الغربيين القاهرة مؤسسة فرانكلين
٩ ـ أوائل المقالات : للمفيد تبريز ١٣٧١ هـ
١٠ـ بحار الأنوار : للمجلسي طهران ١٣١٥ هـ
١١ـ البيان ـ تفسير ـ : للخوئي النجف ١٣٧٧ هـ
١٢ـ التبيان ـ تفسير ـ : للطوسي النجف ١٣٧٦ هـ
١٣ـ تحت راية القرآن : للرافعي القاهرة ١٣٨٥ هـ
١٤ـ تفسير : ابن عباس القاهرة (المكتبةالتجارية)
١٥ـ تفسير : ابن كثير الدمشقي القاهرة ١٣٥٦ هـ
١٦ـ تفسير : الرازي القاهرة ١٣٢١ هـ
١٧ـ تفسير : القرطبي القاهرة ١٣٥٨ هـ
١٨ـ جامع البيان ـ تفسير ـ : للطبري القاهرة ١٣٧٣ هـ
١٩ـ جامع السعادات : للنراقي النجف ١٣٦٨ هـ
٢٠ ـ الدر المنثور ـ تفسير ـ : للسيوطي ـ طبعة مصورة ـ طهران ١٣٧٧ هـ
٢١ـ ديوان : لبيد بن ربيعة الكويت ١٩٦٢ م
٢٢ـ روضة الكافي : للكليني طهران ١٣٧٧ هـ
٢٣ـ سنن : ابن ماجه القاهرة ١٣٧٢ هـ
٢٤ـ سنن : ابي داود القاهرة ١٣٧١ هـ
٢٥ـ سنن : الترمذي القاهرة ١٣٨٢ هـ
٢٦ـ شرح عقائد الصدوق : للمفيد تبريز ١٣٧١ هـ
٢٧ـ صحيح : البخاري القاهرة (محمدعلي صبيح)

٢٨ـ صحيح : مسلم — القاهرة (محمدعلي صبيح)
٢٩ـ عقائد الامامية : للمظفر — النجف ١٣٨٨ هـ
٣٠ـ فتح القدير ـ تفسير ـ : للشوكاني — القاهرة ١٣٨٣ هـ
٣١ـ القرآن والعلم الحديث : لعبدالرزاق نوفل — القاهرة ١٣٧٨ هـ
٣٢ـ القرآن الكريم والعلوم الحديثة : لاحمد كامل — القاهرة ١٩٥٥ م
٣٣ـ لباب النقول : للسيوطي ـ هامش تفسير ابن عباس ـ القاهرة (مصطفى محمد)
٣٤ـ لسان العرب : لابن منظور — بيروت ١٩٥٥ م
٣٥ـ مباحث في علوم القرآن : لصبحي الصالح — بيروت ١٩٦٨ م
٣٦ـ مجمع البيان ـ تفسير ـ : للطبرسي — صيدا ١٣٣٣ هـ
٣٧ـ معالم الاصول : للعاملي — طهران ١٣١٧ هـ
٣٨ـ معاني القرآن : للفراء — القاهرة ١٣٧٤ هـ
٣٩ـ المعجزة الخالدة : للشهرستاني — بغـداد ١٣٧١ هـ
٤٠ـ مناهل العرفان : للزرقاني — القاهرة ١٣٦١ هـ
٤١ـ الناسخ والمنسوخ: لابن حزم ـ هامش تفسير ابن عباس ـ القاهرة (مصطفى محمد)
٤٢ـ الناسخ والمنسوخ : لهبةالله بن سلامة — القاهرة ١٣٧٩ هـ
٤٣ـ النشر في القراءات العشر :ـ لابن الجزري — القاهرة (المكتبةالتجارية)
٤٤ـ النهاية : لابن الأثير — القاهرة ١٣١١ هـ

فهرس الكتاب

١٠٠٠/٩٥
١٩٦٩/١١/٢٧